

الباب الثاني

نشأة الدولة العباسية:

الفصل الأول:

قيام الدولة العباسية

الفصل الثاني:

مميزات العهد العباسي الأول السياسية والدينية

الفصل الأول:

قيام الدولة العباسية

(1) مقدمة

عرف الحكم الأموي نهايته الفاجعة سنة 132هـ/749م. وقد كانت هذه النهاية نتيجة عدد من العوامل والظروف اشتركت فيها من جهة الظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة وما رافقها من مساوئ السياسة المالية والإدارية، كما اشترك فيها من جهة أخرى عناصر أخرى بعضها من عمل بني العباس والأطراف الأخرى المناوئة للأمويين وبعضها من عمل الأمويين أنفسهم. أو بالأحرى إن العمل العباسي في إخفاق دولة الأمويين قد تماشى مع العناصر الداخلية والخارجية التي حتمت وجود الأزمة الحادة في كافة أركان الدولة. ولنا في ذلك أقوال وقصائد كثيرة هي عبارة عن وثائق مهمة جدا، حاول الشعراء الأمويون فيها، كطبقة اجتماعية بارزة في الدولة، أن يقدموا أوضاع الدولة السيئة وأبعادها وفي الوقت نفسه يستغلوا نفوذهم الاجتماعي ويدعوا إلى الإصلاح العام.

منها قصيدة للحارث بن عبد الله بن الحشر الجعدي القيسي (ت حول 140هـ/757م) حيث يقول:

أبيت أرعى النجوم مرتفقا	إذا استقلت بحري أوائلها
من فتنة أصبحت مجللة	قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخرسان والعراق ومن	بالشام كل شجاه شاغلها
فالناس منها في لون مظلمة	دهماء ملتجة غياطلها
يمسي السفه الذي يعنف	بالجهل سواء فيها وعقلها

والناس في كربة يكاد لها
يغدون منها ظل مبهمة

تنبذ أولادها حواملها
عمياء تفتأهم غوائلها¹

ومنها قصيدة للعباس بن الوليد بن عبد الملك² (ت 131هـ/748م) صاغها عندما عرف أن أخاه يزيد بن الوليد يتربص بابن عمه الوليد بن يزيد ويسعى في خلعه. وهو ينصحهم ألا يتفرقوا وأن يتحدوا ويحاولوا أن يتخلقوا بأخلاق الأمويين المتقدمين في هذا الصدد، وقال:

يا قومنا لا تملوا نعمة لكم	إن الإله لكم فيما مضى صنع
فأنتم اليوم أهل الملك مذ حقب	وأهل دنيا ودين ما به طمع
فأنفوا عدوكم عن نحت أثلتكم	واستجمعوا إن أمر الدين مجتمع
قوموا عليه كما قام الأولى نصروا	حتى تولوا وما خافوا وما جزعوا
إن الكبير عليكم في ولايتكم	أن تصبحوا وعمود الدين منصدع
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم	إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم	فشم لا حسرة تغني ولا جزع
إني أعيدكم بالله من فتن	مثل الجبال تسامى ثم تندفع
لستم كمن كان قبل اليوم يسعرها	بالمشرية بيضا حين تنتزع ³ ...

روى المسعودي أن بعض شيوخ بني أمية سئلوا إثر زوال الملك عنهم إلى بني العباس عن أسباب ذلك فأجابوا: "إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمننا فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا، ووثقنا بوزرائنا فأثروا موافقهم على منافعنا وأمضوا أمورنا دوننا وأخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزال طاعتهم لنا واستدعاهم أعاديونا

¹ تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 286.

² أمير، من كبار القادة. كان يقال له "فارس بني مروان". (معجم الأعلام ص 384)

³ أبو القاسم علي بن الحسين ابن عساكر: تهذيب تاريخ ابن عساكر ج 7 ص 272، دار المسيرة، بيروت، 1979م، وتاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 239.

فتظافروا معهم على حربنا، وطلبنا أعدائنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا".⁴ ولا شك أن صاحب هذا القول يشير إلى العباسيين ودعوتهم الناجحة ضد الأمويين ودولتهم.

ونلخص أهم عوامل سقوط الدولة الأموية في ما يلي:

- نفوذ العباسيين على الدولة الأموية.
- الثورات الأخرى غير المنقطعة من قبل الشيعة والخوارج.
- اضطرابات الشام وأزمة الأسرة الأموية.
- المشاكل في السياسة المالية والإدارية.
- فقدان الإحساس بالمسئولية تجاه الدولة والأمة لدى عدد كبير من عمال الدولة.
- الحروب الخارجية المستمرة.

(2) تاريخ الثورة العباسية

العباسيون قبل بداية الدعوة العباسية

ينسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب (ت32هـ/652م) وهو عم الرسول صلى الله عليه وسلم. كانت له منزلة كبيرة في الجاهلية وقد كان رئيس قومه ومن أكثرهم مالا وجاها. وقد دفعه كل ذلك إلى التأخر عن الدخول في الإسلام. لقد أسلم بعد بدر وكرم إسلامه وكان يكتب إلى الرسول بأخبار المشركين، ثم هاجر إلى المدينة وشهد فتح مكة وغزوة حنين⁵ والطائف⁶ سنة 8هـ/629م وتبوك⁷ سنة 9هـ/630م.⁸

⁴ مروج الذهب ج 3 ص 241.

⁵ واد بين مكة والطائف. (معجم البلدان ج 2 ص 313)

⁶ مدينة في الحجاز جنوب شرقي مكة. (معجم البلدان ج 4 ص 8)

⁷ واحة في الحجاز على طريق الحج من دمشق إلى المدينة. (معجم البلدان ج 2 ص 14)

وكان النبي يكرم العباس ويحمله كما كان يفعل ذلك سائر أصحابه حتى وفاته. لم يكن له طموح سياسي بل تحزب لعلي بن أبي طالب. فعندما توفي الرسول قال العباس لعلي: "ابسط يدك فلنبايعك فقبض يده".⁹ ولم يبايع أبا بكر حتى بايعه علي.¹⁰

أعقب العباس بن عبد المطلب عشرة من الأولاد وكان عبد الله بن العباس أكبرهم منزلة. قال مجاهد بن خير مولى بني مخزوم المكي¹¹ (ت 104هـ/722م): "كان عبد الله بن عباس أمدهم قامه وأعظمهم حفنة وأوسعهم علما".¹² وكان حبيبا للرسول فدعا له: "اللهم أعطه الحكمة وعلمه التأويل".¹³ وكان عبد الله بن عباس عالما كبيرا واسع الثقافة محيطا بمعارف عصره من القرآن وحروفه، وتفسير القرآن وتأويله، والفقه والفرائض، والأخبار، والشعر واللغة العربية. وعلى الرغم من كل هذا لم يفكر في الخلافة وتوليها

⁸ الطبقات الكبرى ج 4 ص 14.

⁹ تهذيب تاريخ ابن عساکر ج 7 ص 248.

¹⁰ ثمة روايات متضاربة عنبيعة علي بن أبي طالب لأبي بكر الصديق، فمنها التي تدل على أن عليا لم يتأخر عنبيعة أبي بكر بل تسرع إلى أن يبايعه سرعان ما سمع أنه جلس للبيعة كراهية أن يعطي عنها. ويقال أنه خرج للبيعة في قميص ما عليه إزار ولا رداء، عحلا، فلما بايع أبا بكر بعث إلى ثوبه. (تاريخ الرسل والملوك ج 3 ص 207) وتوجد روايات تقول أن عليا تأخر عنبيعة أبي بكر سنة أشهر. (تاريخ الرسل والملوك ج 3 ص 208، تاريخ يعقوبي ج 2 ص 126) ويقال أنه تأخر حمسا وسبعين يوما، ويقال أربعين يوما. (ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة ج 1 ص 25، تاريخ يعقوبي ج 2 ص 126، مروج الذهب ج 2 ص 308) ونقول أن عليا في الحقيقة لم يكن راضيا ببيعة المسلمين لأبي بكر رضا مطلقا، وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من أبي بكر. ولكنه في نفس الوقت كان واعيا وعيا تاما بالعواقب التي يمكن أن يتجها تخلفه عنبيعة والرفض بها ولو زما يسيرا. وعلى هذا عجل إلىبيعة أبي بكر سرعان ما سمع أن أبا بكر جلس للبيعة خوفا من الفتنة وشق صفوف المسلمين وترك أثر سيئ في نفوس بقية الصحابة. وثمة روايات وفيرة تشير إلى هذا إشارة واضحة ودقيقة. ويروى أن عمرو بن حريث قال لسعيد ابن زيد: أشهدت وفاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم؟ قال: نعم. قال: فمتى بوبع أبو بكر؟ قال: يوم مات رسول الله كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة. قال: فخالف عليه أحد؟ قال: لا إلا مرتد أو من قد كاد أن يرتد. (تاريخ الرسل والملوك ج 3 ص 207) ويروى أيضا أنه لم يتخلف عنبيعة أبي بكر إلا سعد بن عبادة. (كتاب العمر وديوان المبتدأ والخير ج 2 ص 854)

¹¹ تابعي جليل، مفسر مشهور من أهل مكة. (الأعلام ج 5 ص 276)

¹² أبو عبد الله مصعب بن عبد الله الزبيري: نسب قريش ص 26، عني بنشره ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر، دون سنة الطبعة.

¹³ نفس المرجع ص 26، وأنظر أيضا أبو المنذر هشام السائب الكلبي: جمهرة النسب ص 31، رواية السكري عن ابن حبيب، تحقيق الدكتور ناهي حسن، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، الطبعة الأولى، 1986م.

وكان شأنه في ذلك شأن أبيه. ونقل المسعودي أن عمر بن الخطاب فكر في تولية ابن عباس على حمص¹⁴ فرفض.¹⁵

بجانب عدم مطامحه في الخلافة فقد كان لعبد الله بن عباس انتماء كبيرا إلى بني هاشم وعلاقات ودودة بأبناء عمه أبي طالب ولا سيما علي. وكانت لعبد الله بن عباس أنشطة متوفرة أثناء خلافة علي وخاصة أثناء توترات سياسية بينه وبين عائشة وطلحة والزبير في البصرة، ومعاوية والخوارج في وقعة صفين.¹⁶

وبعد ما قتل علي بن أبي طالب لحق عبد الله بن عباس بمكة ثم سالم معاوية بن أبي سفيان وبايعه¹⁷ وأعلن أن معاوية أولى بالخلافة من معارضيه وأجدر بها منهم إذ قال: "ما رأيت أحدا أخلق للملك من معاوية، وإن كان ليرد الناس منه على أرجاء واد رحب، ولم يكن كالضيق الخفضخض".¹⁸

ثم بايع يزيد بن معاوية وكان ينصح الناس أن يبايعوه أيضا، وطلب من الحسين بن علي بن أبي طالب ألا يذهب إلى الكوفة وأن يلزم الحجاز ويبايع يزيد خوفا من غدر أهل العراق به.¹⁹

ترك عبد الله بن عباس ستة من البنين وبينهم علي بن عبد الله بن عباس (ت118هـ/736م) أول شخصية عباسية كانت لها مطامح سياسية.

¹⁴ مدينة قنيطرة جدا بسورية بين دمشق وحلب في نصف الطريق. (معجم البلدان ج2 ص302)، و أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي:

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص137، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1987م)

¹⁵ مروج الذهب ج2 ص330.

¹⁶ تاريخ الرسل والملوك ج4 ص480-576 و ج5 ص13-73.

¹⁷ مجهول: أخبار الدولة العباسية ص88، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور عبد الجبار المطلبي، دار الطليعة، بيروت،

1971م.

¹⁸ تاريخ الرسل والملوك ج5 ص343.

¹⁹ نفس المراجع ج5 ص383.

ويقال أن عبد الله بن عباس أوصى ابنه عليا بإتيان الشام والتحج عن سلطان ابن الزبير إلى سلطان عبد الملك بن مروان.²⁰ فكان يعمل بوصية أبيه مما جعل عبد الملك يحترمه ويحادثه ويجلسه معه على سريره إذا دخل ويرعاه.

قال البلاذري: "و لم يزل علي بن عبد الله بن عباس أثرا عند عبد الملك بن مروان كرمما عليه حتى طلق عبد الملك أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فتزوجها علي فتغير له وثقل عليه، فبسط لسانه بذمه وقال: إنما صلاته رياء. وكان الوليد بن عبد الملك يسمع ذلك من أبيه فلما ولي أقصاه وعابه وتحنى عليه حتى ضربه وسيره".²¹

وأسند ابن خلكان²² (ت 681هـ/1282م) إلى الحجاج بن يوسف الثقفي أن عبد الملك أوجس من علي وابنه محمد خيفة حين أقبل عليه بدومة الجندل²³، فإن قائفه أخبره بعد أن فارقه أن الخلافة تنقلب إلى ولد محمد بن علي، إذ قال لقائفه: "أتعرف هذا؟ فقال: لا، ولكن أعرف من أمره واحدة، قال: وما هي؟ قال: إن كان الفتى الذي معه ابنه فإنه يخرج من عقبه فراغة يملكون الأرض ولا يناوئهم مناوئ إلا قتلوه. قال: فاربذ لون عبد الملك، ثم قال: زعم راهب إيليا ورآه عندي أنه يخرج من صلبه ثلاثة عشر ملكا وصفهم بصفتهم".²⁴

ويروى أن عليا بن عبد الله بن عباس كان يقول أن الخلافة ستكون في ولده، ولذلك ضرب سبعمائة سوط، ثم حمل على بعير ووجهه مما يلي ذنب البعير وصائح يصيح عليه: "هذا علي بن عبد الله الكذاب". فأتاه آت فقال له: "ما هذا الذي نسبوك إليه؟ فأجاب

²⁰ أنساب الأشراف ج 3 ص 53.

²¹ نفس المراجع ج 3 ص 76، والبداءة والنهاية ج 9 ص 333-334.

²² مؤرخ وأديب إسلامي مشهور. قاض. صاحب "وفيات الأعيان". (الأعلام ج 1 ص 220)

²³ واجهة في حروف السرحان (الحجاز). اجتمع فيها الحكمان أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص بعد معركة صفين. (أنظر معجم

البلدان ج 2 ص 487)

²⁴ وفيات الأعيان ج 4 ص 186.

علي: "بلغهم قولي أن هذا الأمر (الخلافة) سيكون في ولدي". فقال: "والله ليكون فيهم حتى يملكهم عبيدهم الصغار الأعين العراض الوجوه" (يعني الترك).²⁵

ويدل ما تقدم أن علياً بن عبد الله بن عباس كان أول من تبنى الخلافة من بني العباس وتكهن بانتقالها إليهم وأظهر ذلك مما أدى إلى سخط الوليد بن عبد الملك عليه وضربه.²⁶

محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (ت125هـ/742م)

أعقب علي بن عبد الله بن عباس اثنين وعشرين ولداً ومن بينهم محمد بن علي شخصية وضعت قواعد الدعوة العباسية وشيد أركانها واختار قادتها. وكانت له علاقة وثيقة بأبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية (ت99هـ/717م) وقد كان أحد زعماء العلويين يومئذ وإمام فرقة الهاشمية التي انشعبت من فرقة الكيسانية.²⁷

ويروى أن أبا هاشم جاء يوماً إلى دمشق ليزور سليمان بن عبد الملك فأكرمه وأجازه، ثم اتجه إلى فلسطين أو الحجاز فمضى في الطريق وأحس بالموت فعدل إلى الحميمة²⁸ ونزل على محمد بن علي فأوصى إليه بالإمامة وعرفه بدعائه وصرف شيعته إليه وأمرهم بالسمع له.²⁹

²⁵ جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر بن الحسين الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ص70، تحقيق الدكتور محمد بن مسفر بن حسين الزهراني، مكتبة الدار، المدينة المنورة، 1988م، وشنرات الذهب ج1 ص149.

²⁶ أنظر البداية والنهاية ج8 ص321.

²⁷ مقالات الإسلاميين ج1 ص92.

الكيسانية: فرقة من فرق الشيعة، قال أصحابها بإمامة محمد بن الحنفية. قد انقرضت هذه الفرقة عبر التاريخ. (أبو منصور عبد القاهر بن الطاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ص26، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مؤسسة الخليلي وشركاه، القاهرة، دون سنة الطبع)

²⁸ قرية صغيرة في أرض الشراة بين الشام والحجاز. (معجم البلدان ج2 ص307)

²⁹ أنظر نسب قريش ص75، وأنساب الأشراف ج3 ص80، والطبقات الكبرى ج5 ص328، تاريخ يعقوبي ج2 ص297، ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة ج2 ص209، الفحري في الآداب السلطانية ص143، علي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبين ص123-124، تحقيق السيد أحمد صقر، مؤسسة الأمل للطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية، 1987م.

ورغم أن هذه الوصية واردة تقريباً في كل الكتب التاريخية وحتى في كتب الشيعة أنفسهم فإنه يحوم الشك أحياناً حولها وخاصة عندما تتساءل عن السبب الذي دفع أبا هاشم بحمل الإمامة من البيت العلوي إلى البيت العباسي. ويشهد تساؤلنا حين نتذكر أن العباسيين لم

في الحقيقة هناك تضارب واضح³⁰ بين الروايات التي تورط سبب موت أبي هاشم، ومنها أنه مات مسموما بعدما رجع من عند سليمان بن عبد الملك. وتحدث بتفصيل صاحب أخبار الدولة العباسية عن ذلك ونفى أن يكون الوليد بن عبد الملك أو أخوه سليمان قد سمه، وأكد أنه مات مهموما مغموما لأن الوليد بن عبد الملك استهان به. وقال: "زعم بعض الناس أن سبب موت أبي هاشم كان أن الوليد دس إليه حين شخص عن دمشق من سقاه شربة لبن مسموم فكان موته بذلك. ولم يذكر ذلك إسحاق بن الفضل ولا غيره ممن كان يخبر أمره، وذكر أنه مات كمدا لما رأى من استخفاف الوليد بأمره".³¹

بغض النظر عن صحة أو وضع هذه الوصية فإن بني العباس اعتمدوا عليها في تقرير حقهم في الخلافة. وعلى ذلك نقول أن الطموح العباسي إلى الخلافة ليس بذئ جذور تاريخية بعيدة، ولكنه يعود إلى أواخر القرن الأول الهجري. وإذا كان محمد بن علي هو منظم الدعوة السرية وصاحبها الحقيقي فإن إبراهيم ابنه (ت132هـ/749م) هو مفجر الثورة العباسية، كما سنرى قريبا. قال الأشعري³² (ت324هـ/935م): "الفرقة التاسعة من الرافضة³³ وهي الثامنة من الكيسانية يزعمون أن الإمام بعد أبي هاشم هو محمد بن علي

تكن لهم مطامح سياسية قبل علي بن عبد الله بن عباس ثم ابنه محمد. فمن الممكن أن تلك الوصية قد تمت قبل فترة وجيزة أمام شهود كثيرين عليها ولم تعرف علانية بما إلا بعد وفاة أبي هاشم، أو ربما جاء أبو هاشم الخليفة فناقش الأمر مع العباسيين وتحالف معهم ثم توفي فجأة ولا عقب له فعهد إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

³⁰ عن التفاصيل في ذلك أنظر الدكتور عبد العزيز محمد التليلم: العلاقات بين العلويين والعباسيين ص45-85، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1992م.

See also: Jacob Lassner: Islamic Revolution and Historical Memory: page 55-63, American Oriental Society, New Haven, Connecticut, 1986.

³¹ أخبار الدولة العباسية ص188.

³² مؤسس مذهب الأشاعرة، كان من أئمة للتكلمين المتهندين. ولد بالبصرة وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم، ثم رجع وجاهر بخلافهم. (الأعلام ج4 ص263)

³³ الروافض في اللغة حند تركوا قائدهم. والروافض قوم من الشيعة سمو بذلك لأنهم تركوا زيد بن علي، أي بايعوه ثم قالوا له: أيرأ من الشيعين، أي أبي بكر وعمر، نقاتل معك"، فأبى قائلا: "كانا وزيرين حدي فلا أيرأ منهما"، فرفضوه ورفضوا عنه فسما رافضة. (أنظر لسان العرب ج7 ص157، والفرق بين الفرق ص18-19)

بن عبد الله بن عباس، قال: ذلك أن أبا هاشم مات بأرض الشراة³⁴ منصرفاً من الشام، فأوصى هناك إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأوصى محمد بن علي إلى ابنه إبراهيم بن محمد، ثم أوصى إبراهيم بن محمد إلى أبي العباس³⁵ (ت 136هـ/753م)، ثم أفضت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور³⁶ (ت 158هـ/774م) بوصية بعضهم إلى بعض".³⁷

وقد ظل هذا الاعتقاد موجوداً حتى جاء المهدي³⁸ (ت 169هـ/785م) وأبطل ذلك معتقداً أن بني العباس ورثوا الخلافة من العباس بن عبد المطلب لأنه عم الرسول ومن أفضل الناس، ولذا فهو أولى الناس بالإمامة. قال صاحب أخبار الدولة العباسية: "كان تشيع العباسية أصله من قبل محمد بن الحنفية، وإلى ذلك دعا أبو مسلم الخراساني³⁹ (ت 137هـ/754م) حتى كان زمان المهدي فردهم إلى إثبات الإمامة للعباس بن عبد المطلب، وقال لهم: إن الإمامة كانت للعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم فإنه كان أولى الناس به وأقربهم إليه، ثم من بعده عبد الله بن العباس، ثم من بعده علي بن عبد الله، ثم من بعده محمد بن علي، ثم من بعده إبراهيم بن محمد، ثم أبو العباس، ثم أبو جعفر، ثم المهدي، ثم مدّها في ولد المهدي، فهي قائمة فيهم إلى اليوم".⁴⁰

لقد أخذ محمد بن علي وصية أبي هاشم بقوة وتدبرها من كل جانب وأول خطوة خطاها هي جعل خراسان مركز الدعوة. ولا شك أن ذلك كان في غاية الحكمة لأن موقع خراسان كان بعيداً عن حاضرة الخلافة وتأثيراتها المباشرة، إضافة إلى أن سكان هذه المنطقة كانوا إما الموالي والعجم أو العرب الذين كانوا يعيشون متذمرين من ممارسات بني

³⁴ كتلة جبال صحرية تمتد في شمال الحجاز وفلسطين والأردن. (معجم البلدان ج 3 ص 331)

³⁵ أول خلفاء الدولة العباسية. تولى أمور المسلمين من سنة 132هـ إلى 136هـ. كانت الدولة العباسية في مرحلة التكون أثناء خلافته. (تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 470)

³⁶ ثاني خلفاء الدولة العباسية. تولى أمور المسلمين من سنة 136هـ إلى 158هـ. أثناء خلافته استقرت أمور الدولة العباسية.

(الفجري في الآداب السلطانية ص 159)

³⁷ مقالات الإسلاميين ج 1 ص 92.

³⁸ ثالث خلفاء الدولة العباسية. تولى أمور المسلمين من سنة 158هـ إلى 169هـ. (تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 168)

³⁹ زعيم الثورة العباسية ومؤسس الدولة العباسية. قتل الخليفة المنصور سنة 137هـ. (تاريخ خليفة بن خياط ص 272)

⁴⁰ أخبار الدولة العباسية ص 165.

أمية السياسية. ويروى عن محمد بن علي أنه قال: " لا أرى بلدا إلا وأهله يميلون عنا إلى غيرنا، أما أهل الكوفة فميلهم إلى ولد علي بن أبي طالب، وأما أهل البصرة فعثمانية، وأما أهل الشام فسفانية مروانية، وأما أهل الجزيرة فخوارج، وأما أهل المدينة فقد غلب عليهم حب أبي بكر وعمر، ومنهم من يميل إلى الطالبين، ولكن أهل خراسان قوم فيهم الكثرة والقوة والجلد وفراغ القلوب من الأهواء، فبعث إلى خراسان".⁴¹

وبعد اختيار مركز الدعوة أخذت تنتشر من خلال دعاة ومجالس في مناطق مختلفة ولا سيما في خراسان. يقول الطبري⁴² (ت310هـ/922م) في سياق حديثه عن ذلك: "في هذه السنة، أي سنة مائة، وجه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من أرض الشراة مسيرة إلى العراق، ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وهو أبو محمد الصادق وحيان العطار خال إبراهيم بن سلمة إلى خراسان، وعليها يومئذ الجراح بن عبد الله الحكمي من قبل عمر بن عبد العزيز، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى بيته، فلقوا ما لقوا، ثم انصرفوا بكتب من استحباب لهم إلى محمد بن علي فدفعوها إلى مسيرة فبعث بها مسيرة إلى محمد بن علي، واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي اثني عشر رجلا نقباء، منهم سليمان بن كثير الخزاعي ولاهز بن قريظ التميمي وقحطبة بن شبيب الطائي وموسى بن كعب التميمي وخالد بن إبراهيم أبو داود من بني عمرو بن شيبان بن ذهل والقاسم بن مجاشع التميمي وعمران بن إسماعيل أبو النجم مولى لآل أبي معيط ومالك بن الهيثم الخزاعي وطلحة بن رزيق الخزاعي وعمرو بن أعين أبو حمزة مولى لخزاعة وشبل بن طهمان أبو علي الهروي مولى لبني حنيفة وعيسى بن أعين مولى خزاعة، واختار سبعين رجلا فكتب إليهم محمد بن علي كتابا ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرة بهم".⁴³

وفي سنة 105هـ/723م مرض أبو رباح مسيرة النبال، زعيم الدعاة بالكوفة، واستخلف قبل وفاته في نفس السنة سالم بن مجير (ت حول 130هـ/747م) فقام بأمره شهورا، ولكن

⁴¹ أخبار الدولة العباسية ص206، ومطهر بن طاهر المقدسي: البدء والتاريخ ج6 ص59، اعتنى بنشره كلمان هوار، باريس، 1919م.

⁴² مؤرخ، مفسر إسلامي مشهور. ولد في طرستان واستوطن بغداد وتوفي بها. صاحب "تاريخ الرسل والملوك". (لأعلام ج6 ص69)

⁴³ تاريخ الرسل والملوك ج6 ص562.

محمد بن علي لم يرض عنه وولى مكانه بكير بن ماهان (ت127هـ/744م). يقول في ذلك أبو حنيفة الدينوري: "كان مع الجنيد بن عبد الرحمن عامل السند رجل من الشيعة يسمى بكير بن ماهان، فانصرف إلى موطنه من الكوفة، وقد أصاب بأرض السند مالا كثيرا، فلقبه ميسرة العبدى وأبن خنيس وأخبراه بأمرهما وسألاه أن يدخل في الأمر معهما، فأجابهما إليه وقام معهما وأنفق جميع ما استفاد بأرض السند من الأموال بذلك السبب. ومات ميسرة بأرض العراق وكتب الإمام محمد بن علي إلى بكير بن ماهان أن يقوم مقام ميسرة. وكان بكير يكنى بأبي هاشم وبها كان يعرف في الناس. وكان رجلا مفوها، فقام بالدعاء وتولى الدعوة بالعراقين. وكانت كتب الإمام تأتيه فيغسلها بالماء ويعجن بغسالتها الدقيق ويأمر فيختبز منه قرص، فلا يبقى أحد من أهله وولده إلا أطعمه منه".⁴⁴

وقد تبين لنا مما سبق أن منصب زعيم الدعوة بالكوفة كان ذا أهمية بالغة اهتم به محمد بن علي كل الاهتمام. هذا لأن الكوفة استطاعت أن تؤدي دورا بارزا في فترات الدعوة التالية لأجل موقعها الجغرافي، ولأجل وجود شيعة أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الذين انضموا إلى بني العباس في الدعوة. أما الأول فإن الكوفة أقرب إلى خراسان من الحميمة وبالتالي تيسر لزعيم الدعوة أن يشرف على نشر الدعوة في خراسان ويرسل الدعوة ويراقبهم ويراقب منهجية تطبيق مبادئ الدعوة، ثم يكتب إلى محمد بن علي عن كل هذا وذلك، وكان يقابله في موسم الحج وكان يزوره بالحميمة إذا طرأ أمر طارئ واحتاج رأيه. وكذلك الدعوة كانوا يأتون عنده ويخبرونه عن أحوال الدعوة ويجادلون خطوات الدعوة اللاحقة، وكانوا يقابلون محمد بن علي في موسم الحج للحصول على أوامر جديدة وتصحيح أخطاء ذات أثر سلبي في الدعوة.

أما العامل الثاني فهو توطيد العلاقات بين شيعة أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وبني العباس بالكوفة. وإذا كانت شخصية بهذه المرتبة العالية في الدعوة موجودة بالكوفة

⁴⁴ الأخبار الطوال ص333، وأنظر أيضا تاريخ الرسل والملوك ج7 ص25.

وعايش المؤيدين من الهاشميين يوما فلا شك أن العلاقات بين الطرفين ستتحسن وتقوى من يوم إلى آخر.

ونضيف أيضا أن سكان الكوفة لم يرضوا أبدا كل الرضا عن بني أمية وكانوا مشهورين بالتذمر والخروج عليهم وانتمائهم إلى علي بن أبي طالب وأولاده. والآن عندما تنتشر فكرة الثورة الشاملة ضد الأمويين والتي تمتد جذورها إلى أبي هاشم الذي نفسه كان علويا فمن الممكن أن تعم وتضم هذه الدعوة الجديدة كافة أطراف المجتمع الكوفي.

وتجدر الإشارة أيضا إلى أن الدعوة العباسية نشأت وظلت غامضة الأسس والأغراض الحقيقية في أذهان كثير من متبعيها والمعارضين لها إذ كانت من أكثرها تداولاً الدعوة إلى الرضا من آل محمد. وكانت تندرج نظريا تحت هذا الشعار أحزاب عديدة معارضة لبني أمية. ولعل ذلك ساهم كثيرا في تكثير أتباع الدعوة العباسية وخاصة في مراحلها الأولى حينما لم تبلور بعد مقاصدها وغاياتها الحقيقية.

ونحن الآن بصدد تلك المراحل، يرسل الدعاة إلى الأمصار وزعيمهم بالكوفة، وتشاع شعارات جذابة لنفوس معارضة للدولة بني أمية من مثل الدعوة إلى الرضا من آل محمد والعمل بالكتاب والسنة،⁴⁵ ولكن من الرضا من آل محمد ومن سيقوم بإقامة العدل في الأرض والعمل بالكتاب والسنة لم يعرف إلا شرذمة من الناس. إن إمام الدعوة محمد بن علي لزم الحميمية بعيدا عن مركز الدعوة وجعل زعيم الدعوة بالكوفة واسطة بينه وبين الدعاة. كانت له - بلا شك - أسباب لذلك ومنها، نحن نعتقد، تزويد الغموض في أصول الدعوة مما سينتج إقبال أعمى عند الناس المستهدفين بالدعوة.

لقد ظهرت بوادر هذا الأسلوب عند أبيه علي بن عبد الله (ولنتذكر أنه كان أول من اهتم بتولية الخلافة من العباسيين كما سبق وتكهن بانتقالها إلى بني العباس) لما تحول من

⁴⁵ ستعقب التفاصيل عن مبادئ الدعوة العباسية في الصفحات اللاحقة.

دمشق إلى الحميمة فاستوطنها خوفاً من أن ينفس عليه أهل الشام مكانته من عبد الملك بن مروان فيشي به أحدهم إليه فينفر منه ويسخط عليه. قال مصنف أخبار الدولة العباسية: "قال له عبد الملك: ارتد متراً تظم فيه أهلك وخاصتك، قال له (علي بن عبد الله): أحب المنازل إلى أخلاها وأبعدها من العوام، فإني متى قمت معك بدمشق لم آمن أن يلقاك بعض أهل الشام فيقول: قال علي ولقي علي، وعرضني لتهمتك! فقال له عبد الملك: وصلتك الرحم ما أنت بمتهم والبقاء منزل صدق تظم فيه أهلك وحشمك، وتقيم عندي ما أحببت وتأتيني إذا شئت، ولست تبعد عني ولا ينسأك ذكري ولا يبعد عنك خير من بالحجاز من أهل بيتك. فترل بالشرأة من البلقاء ونزل من الشرأة الحميمة".⁴⁶

وفي سنة 118هـ/736م عين خدش بن يزيد (ت120هـ/738م) داعياً في خراسان ولكن انحرف عن مبادئ الدعوة وشذ عن مقاصدها وغاياتها الحقيقية. ويروى أنه قبل ذلك كان نصرانياً من أهل الخيرة⁴⁷ وكان اسمه عمار بن يزداد.⁴⁸ كان انحرافه سبب ثورة شيعة العباسيين عليه وإعدامه. قال البلاذري: "وجه بكير عماراً هذا فغير سنن الإمام وبدل ما كان في سيرة من قبله، وحكم بأحكام منكراً مكروهة، فوثب به أصحاب محمد بن علي فقتلوه، ويقال: بل قتله أسد بن عبد الله وصلبه".⁴⁹

وقد أعلن خدش دين الخزيمة⁵⁰ وأحل النساء وأباحهن وكان يكرر أن محمد بن علي أمره بذلك، ثم طلب من الناس أن يتركوا الطاعة والفروض.⁵¹

⁴⁶ أخبار الدولة العباسية ص154.

⁴⁷ قرية في سوريا بناها البيزنطيون في بداية القرن السابع، وبني القسم الشرقي منها هشام بن عبد الملك. (أنظر المنجد في اللغة والأعلام ج2 ص227).

⁴⁸ أنساب الأشراف ج3 ص116، وأنظر الكامل في التاريخ ج5 ص196.

⁴⁹ أنساب الأشراف ج3 ص117.

⁵⁰ هم أصحاب بابك الخرمي، يسمون أيضاً أصحاب الإباحة. هم صنفان: صنف كانوا قبل الإسلام مثل للزكية، وبعد الإسلام مثل الخرمينية. الخرمينية فريقان: بابكية ومازبارية. لمزيد من التفاصيل أنظر فصلنا "الصلة بين ازدهار علم الكلام ومكافحة العباسيين للشعبية والزندقة". (أنظر الفرق بين الفرق ص160-161).

⁵¹ أنظر تاريخ الرسل والملوك ج7 ص109، والكامل في التاريخ ج5 ص196، والبداية والنهاية ج9 ص339.

وكان انحراف خدش هذا بلا شك من أكبر الأخطار بل الصدمات التي صادفها محمد بن علي خاصة والدعوة العباسية عامة إذ كانت الدعوة لا تزال في مرحلة التكون والتطور ولا سيما عندما نتذكر أن الانحراف حدث في قلب مولد الدعوة وأن من انحازوا إلى خدش كانوا كثرا وكان فيهم بعض النقباء والدعاة.⁵²

إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس

وفي سنة 125هـ/742م توفي محمد بن علي بعد أن أوصى لابنه إبراهيم، وفي السنة التالية أرسل إبراهيم بكير بن ماهان إلى خرسان فجمع الأتباع بمرو⁵³ وأخبرهم بوصية محمد بن علي وأعطاهم رسالة إبراهيم فاعترفوا ودفعوا له ما جمعوا من الأعمال.⁵⁴

وبعد وفاة بكير بن ماهان في سنة 127هـ/744م عين إبراهيم الإمام أبا سلمة الخلال (ت132هـ/749م) زعيم الدعوة وذهب إثر تعيينه إلى خرسان وصدقه أهلها وقبلوه.⁵⁶

وفي سنة 128هـ/745م تدبر إبراهيم بن محمد الدعوة كل التدبر وأدرك أن الظروف قد هيأت وأن الوقت قد حان لاستعدادات أخيرة لإعلان الثورة، وذلك بعد احتدام عصبية قبائل العرب في خراسان واقتتالهم وتفانيهم من ناحية، واشتغال مروان بن محمد بمحاربة الثائرين عليه من أهل بيته ومن الخوارج من ناحية أخرى. وهنا احتاج إبراهيم الإمام شخصية قوية على رأس الدعوة في خرسان.⁵⁷ وشاور الدعاة والنقباء في ذلك، ومن وضع

⁵² الكامل في التاريخ ج 5 ص 196.

⁵³ مدينة في تركمنستان في قناة كاراكوم. وتشمل مرو مرو الروذ ومرو الشاهجان، والثاني أكبر من الأول. (معجم البلدان ج 5 ص 112)

⁵⁴ تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 293، والبداءة والنهاية ج 10 ص 6.

⁵⁵ كان له دور عظيم في إقامة الدولة العباسية، وكان لقبه "وزير آل محمد". قتل الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح سنة 132هـ. (شذرات الذهب ج 1 ص 191) سفصل الحديث عن هذا في فصلنا القادم "مميزات العهد العباسي الأول السياسية والدينية".

⁵⁶ تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 329.

⁵⁷ أنظر شذرات الذهب ج 1 ص 179، والدكتور عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص 25، دار الطليعة، بيروت، 1988م.

في الاعتبار والجدال سليمان بن كثير⁵⁸ (ت132هـ/749م) وقحطبة بن سيبب الطائي⁵⁹ (ت132هـ/749م) وأحد رجال بيته فرفض هؤلاء، وفي النهاية اختار أبا مسلم الخراساني لأجل ذكاء عقله وفهمه وحسن بصره وجودة ذهنه وحسن منطقته.⁶⁰

ويروى أن نفرا من النقباء والدعاة عارضوا تعيين أبي مسلم ولم يلتفتوا إلى كتاب إبراهيم الإمام إليهم بالتعزيد له، وساروا إلى الإمام في السنة التالية مقدمين معارضتهم له. وفي رد الإمام عليهم ووصيته إلى أبي مسلم بعد ذلك يتضح لنا بعد الثقة بنفسه والعزم وقدرته السياسية. وها قول الطبري في ذلك: "في هذه السنة وجه إبراهيم بن محمد أبا مسلم إلى خراسان وكتب إلى أصحابه: إني قد أمرته بأمرني فاسمعوا منه واقبلوا قوله فأني قد أمرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك. فأتاهم فلم يقبلوا قوله وخرجوا من قابل فالتقوا بمكة عند إبراهيم فاعلمه أبو مسلم أنهم لم ينفذوا كتابه وأمره. فقال إبراهيم: إني قد عرضت هذا الأمر على غير واحد فأبوه علي، وذلك أنه كان عرض ذلك قبل أن يوجه أبا مسلم على سليمان بن كثير، فقال: لا إني اثنين أبدا، ثم عرضه على إبراهيم بن سلمة فأبي فاعلمهم أنه أجمع رأيه على أبي مسلم وأمرهم بالسمع والطاعة، ثم قال: يا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت فاحتفظ وصيتي وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، وأنظر هذا الحي من ربيعة فاتمهم في أمرهم، وأنظر هذا الحي من مضر فأنهم العدو القريب الدار، فاقتل من شككت في أمره ومن كان في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء، وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل، فأیما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمة فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ، يعني سليمان بن كثير، ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني".⁶¹

⁵⁸ ناصر الدولة العباسية، وكان له دور عظيم في إقامتها. كان أحد النقباء الاثني عشر الذين اختارهم محمد بن علي. قاد جيوش أبي مسلم الخراساني الذي قتل سنة 132هـ/749م. (تاريخ الرسل والملوك ج7 ص450)

⁵⁹ قائد شجاع من ذوي الرأي والشأن. (الأعلام ج5 ص191)

⁶⁰ أنساب الأشراف ج3 ص119، والبدایة والنهاية ج10 ص32.

⁶¹ تاريخ الرسل والملوك ج7 ص344.

والتزم أبو مسلم وصية إبراهيم الإمام ونجحت الدعوة تحت قيادته في خرسان نجاحا كبيرا.

وكان نصر بن سيار⁶² (ت131هـ/748م) يومئذ منشغلا بإخماد الفتنة بين المضرية واليمانية والقبائل العربية الأخرى. وقد حاول تسوية خلافاته مع جديع بن شبيب الكرمانى (ت129هـ/746م) فلم يفلح⁶³، واضطر لمراسلة الخليفة مروان بن محمد وأوضح له خطورة حركة أبي مسلم على الحكم الأموي، إلا أن مروان لم يتمكن من نجده بسبب انشغاله بقتال الخوارج. ولما ألح نصر بطلب النجدة أمر مروان عامله على العراق يزيد بن هبيرة (ت132هـ/749م) بنجدة نصر بن سيار، إلا أن ابن هبيرة تشاغل بإخماد الفتنة في العراق.⁶⁴

وأما أبو مسلم فقد جعل سفيذنج⁶⁵ مركزه الأول للثورة وتوافد عليه الأنصار والأتباع من كافة أنحاء خرسان وبلاد ما وراء النهر. وفي اليوم الخامس والعشرين من رمضان سنة 129 هـ رفع اللواء والراية اللذين أرسلهما إبراهيم الإمام وقام برفعهما سليمان بن كثير نقيب النقباء الذي كان وجه الثورة والمتكلم باسمها وهو الذي أعلن الثورة وفض اللواءين العباسيين وصلى في الناس.⁶⁶

وقد استطاع سليمان ابن كثير وأبو مسلم كسب علي بن الكرمانى (ت130هـ/747م) (هو ابن جديع الكرمانى) الذي انحاز إليه عدد كبير من العرب. ولم يكن هدفه العمل من

⁶² أمير أموي بخرسان. من الدهاة الشجعان. كان من الخطباء الشعراء. (الأعلام ج8 ص23)

⁶³ تاريخ الرسل والملوك ج7 ص365.

⁶⁴ أنظر العصر العباسي الأول ص27، والبداية والنهاية ج10 ص35.

⁶⁵ قرية من قرى خزاعة. وخرافة قبيلة عربية من الأزد، ارتحلت إلى الشمال إثر تصدع سد مأرب. كانت لهم سدانة الكعبة إلى أن

انتزعها منهم قصي. (أنظر المنجد في اللغة والأعلام ج2 ص231)

⁶⁶ أنظر فاروق عمر الفوزي: العباسيون الأوائل ص29، بغداد، 1977م، وتاريخ يعقوب ج2 ص340-344.

أجل العباسيين فقد كان هدفه التخلص من نصر بن سيار، ولذلك نرى سليمان وأبا مسلم يحاولان استغلال هذه الرغبة لدى ابن الكرماني.⁶⁷

وتمكن ابن الكرماني من دخول مرو بعد أن حاصر نصر بن سيار في داخلها. وبعد الاستيلاء على مرو أعطيت قيادة الجيوش العباسية إلى قحطبة بن شبيب الطائي حسب أوامر إبراهيم الإمام.⁶⁸

أما نصر بن سيار فقد توجه إلى قومس⁶⁹ على حدود جرجان⁷⁰ ومعه جموع من عرب بكر وتميم الذين هربوا من خراسان، وفي هذه الأثناء وصلت قوات من العراق أرسلها يزيد بن هبيرة بناء على أوامر مروان بن محمد إلا أن هذه القوات هُزمت أمام قحطبة بن شبيب في ذي الحجة من سنة 130هـ/747م، وحاول نصر التصدي لجيوش الحسن بن قحطبة (ت 181هـ/797م) غير أنه اضطر للانسحاب نحو همدان⁷¹ حيث توفي في ساوه⁷² سنة 131هـ/748م.⁷³

ظل أمر الدعوة العباسية سرا حتى وقع في يد مروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، كتاب إبراهيم بن محمد إلى أبي مسلم فأمر بالقبض عليه وسجنه بحران⁷⁴ سنة 131هـ/748م ثم قتل بعد ذلك.⁷⁵

⁶⁷ أنظر العباسيون الأوائل ص30-69، البداية والنهاية ج10 ص34، وتاريخ خليفة بن خياط ص254.

⁶⁸ أخبار الدولة العباسية ص388.

⁶⁹ قومس: كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع، وهي في ذيل طبرستان. ومن مدنها المشهورة بسطام وبيار. (معجم البلدان ج4 ص414، كتاب البلدان ص45)

⁷⁰ مدينة عظيمة مشهورة في إيران بين طبرستان وخراسان. (معجم البلدان ج2 ص119، كتاب البلدان ص46)

⁷¹ مدينة إيرانية جنوب غربي طهران. (معجم البلدان ج5 ص410، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص296)

⁷² مدينة قديمة بين الري وهمدان. (معجم البلدان ج3 ص179)

⁷³ أنظر أخبار الدولة العباسية ص328، تاريخ الرسل والملوك ج7 ص391، عماد الدين إسماعيل أبي الفداء: المختصر في أخبار البشر ج1 ص210، دار المعرفة، بيروت، دون سنة الطبعة.

⁷⁴ مدينة قديمة في تركيا ما بين النهرين. (معجم البلدان ج2 ص233)

⁷⁵ تاريخ الرسل والملوك ج7 ص422، البداية والنهاية ج10 ص41، مروج الذهب ج3 ص258-259.

وكان إبراهيم الإمام قد أوصى إلى أخيه أبي العباس وأمر أهل بيته أن يسمعوا له
ويطيعوه وطلب منه أن يذهب بأهله سرا إلى الكوفة.⁷⁶ وأخيرا في الثالث عشر من ربيع
الآخر سنة 132هـ/749م بايع الناس أبا العباس بالكوفة⁷⁷ وبدأت تنقش صفحة جديدة في
التاريخ الإسلامي.

(3) أصول الدعوة العباسية

لقد كانت الدعوة العباسية خطة مفصلة ذات أصول ومبادئ ثابتة ومقاصد وغايات
واضحة. وجوانب هذه الخطة كانت تنفذ برجال ذوي عقول ذكية وقدرات تدبيرية
وسياسية عالية مثل محمد بن علي، وإبراهيم بن محمد، وبكر بن ماهان، وأبي مسلم
الخراساني وغيرهم.

ومن أهم هذه الأصول:

- أ) اختيار بيئة ملائمة للدعوة،
- ب) الدعوة للرضا من آل محمد،
- ج) الدعوة للعمل بالكتاب والسنة،
- د) التعاون مع الأحزاب والديانات الأخرى.

أ) اختيار بيئة ملائمة للدعوة

اختار العباسيون خراسان مركز دعوتهم وركزوا عليها كل التركيز لأنهم لاحظوا أن
منطقة خراسان تحتوي على عناصر عديدة لا توجد مثلها في أمصار الدولة الإسلامية

⁷⁶ تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 423.

⁷⁷ أنساب الأشراف ج 3 ص 141، أبو محمد عبد الله بن سعد بن علي بن سليمان الباقعي البجلي المكي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج 1 ص 276، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1993م.

الأخرى، والتي بحسن استغلالها تستطيع أن تؤدي إلى نجاح قيم. فهي بعيدة عن حاضرة السلطة الأموية، وفي الوقت نفسه خالية من تنازع وأهواء الأحزاب الدينية المتباغضة. وكان سكانها يواجهون مشاكل ذات طابع أخرى مثل مشكلات اجتماعية ومالية وسياسية محلية في معظم الأحوال بسبب سياسة الحكام الأمويين تجاه خرسان واستهانتهم بها. وكان طبيعيا أن يغلب الدعاة العباسيون بسرعة هائلة على عواطف سكان خرسان ويكسبوا تأييد دعوتهم وتعصيدها. ولا شك أن مهارة وحسن تدبير دعاة العباسيين ساهم في ذلك مساهمة ملحوظة كما سنرى في ثنايا هذا الفصل.

أما المشاكل الاجتماعية فقد تمثلت في التفرقة الطبقية. علينا أن نتذكر هنا أن كثيرا من العرب هاجروا إلى خرسان بعد فتحها واستوطنوها واستقروا فيها مما أدى إلى اقتباس كثير من عادات وتقاليدها محلية مثل الملابس، واللغة، واحتفال الأعياد وغير ذلك. ولكن ما تدخلوا كثيرا في الأمور الداخلية، ولا سيما في أمور التفرقة القومية والتنازع والتباغض بين القبائل المحلية على السلطة الموروثة عن العهد الساساني.⁷⁸

وقد تعرب كثير من الموالي وخاصة بعد اعتناقهم للإسلام، مما أدى إلى اندماج واسع المدى بين العرب وسائر سكان خرسان، إلا أن العرب لم يلغوا النظام الطبقي الساساني إلغاء تاما كما لم يسعوا في إصلاحه سعيا حثيثا، بل إنهم أخذوا يطبقونه إذ بدءوا يستولون على الموالي فكانوا يستصغروهم ويشكون في نياهم ويتحرزون منهم. ولم يكن الموالي يأخذون نصيبا مقررًا من الغنائم رغم أنهم حاربوا مع العرب، ومعطيائهم ما كانت ثابتة، ولم يكونوا مقيدين في الديوان. ومع أنهم كانوا قد اندمجوا في القبائل العربية فإنهم كانوا يسمون "أهل القرى"، ولم تسقط عنهم الجزية ومع أنهم كانوا مسلمين.⁷⁹

⁷⁸ يوليوس فلهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص467، نقله إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1958م.

⁷⁹ أنظر نفس المرجع ص471.

وفي ذلك قد أضاف العرب صبغة جديدة للتفرقة الطبقية التي وجدوها في خراسان. ولذا نرى الموالي يضجون من الظلم الاجتماعي ويتطلعون إلى من يتقدمهم ويخلصهم، وكانوا ينشدون المساواة بين الناس بغض النظر عن اختلاف ألوانهم وأجناسهم ما داموا مسلمين.

أما سياسة العرب المالية فلم تكن أحسن من سياستهم الاجتماعية. فقد فرضوا الخراج على ملاك الأرض منهم وفرضوا الجزية على أهل الذمة منهم، وكان العمال يأخذون الجزية ممن أسلم أيضا في الأعم الأكثر فإنهم لم يضعوا عنهم إلا في أيام عمر بن عبد العزيز وآخر أيام هشام بن عبد الملك.

فلما استخلف عمر بن عبد العزيز عزل يزيد بن المهلب (ت 102هـ/720م) عن خراسان وكان كل واحد منهما يكره الآخر ويطعن فيه. قال أبو مخنف: "كان عمر يبغض يزيد وأهل بيته ويقول: هؤلاء جبابرة لا أحب مثلهم، وكان يزيد بن المهلب يبغض عمر ويقول: إني لأظنه مرثيا. ثم أمر عمر بحمل يزيد إليه، فلما قدم به عليه سأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك. فقال: كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني بشيء سمعت ولا بأمر أكرهه. فقال له: ما أجد في أمرك إلا حبسك، فاتق الله وأد ما قبلك، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها، فردّه إلى محبسه، وبعث إلى الجراح بن عبد الله الحكمي فسرّحه إلى خراسان. وأقبل مخلد بن يزيد من خراسان يعطي الناس ولا يمر بكورة إلا أعطاهم فيها أموالا عظاما".⁸⁰

أما العرب فقد اشتغلوا بالعصبية القبلية والسياسية وخاصة بعد ما استولوا على الموالي وأصبحت لهم الكلمة الأخيرة في الشؤون السياسية والاجتماعية والاقتصادية. فقد تحزب بعضهم على بعض وصاروا يختلفون ويتصارعون في معظم الأحيان وفي شتى القضايا.

⁸⁰ تاريخ الرسل والملوك ج 6 ص 557.

وكانت هذه العصبية نتيجة الظروف الجديدة التي طرأت عليهم وأثرت في حياتهم تأثيراً شديداً. وكان لانحياز بعض الخلفاء إلى بعض القبائل أثر كبير في اشتداد الصراع والعصبية، فمنهم من كان يميل إلى المضرية ومنهم من كان يميل إلى اليمانية.⁸¹

وكان اهتمام العرب بالزراعة في خراسان في بداية الأمر محدوداً جداً ثم أخذ ينمو بالتدريج، فأقبلوا على اقتناء الأرض والاشتغال بالزراعة، وأصبح بعضهم من كبار ملاك الأرض في الربع الأول من القرن الثاني إذ كان سادتهم وأشرافهم يمتلكون القرى والضياع في واحة مرو الشاهجان الكبرى، ومما يدل على ذلك أنها كانت تعزى إليهم وتعرف بهم.⁸²

وينمو اهتمامات العرب بالزراعة تحت مشاكل واضطرابات مع السلطة التي رأت في ثروات الخرسانيين فرصة لتوفير أموال خزائنها. كانت أرضهم أولاً عشرية ثم جعلت خراجية حين فرض الحجاج بن يوسف الثقفي الخراج على الأرض التي امتلكها العرب في العراق وخرسان.⁸³ فزادت الضرائب التي أصبح عليهم أن يدفعوها فقاوموها وثاروا على الحجاج في العراق مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي، وادعوا بعد إخماد الثورة أن أرضهم كانت في الأصل عشرية ولم تكن خراجية.⁸⁴

قال الطبري: "أخذ أمية الناس بالخراج واشتد عليهم فيه، فجلس بكير بن وشاح التميمي يوماً في المسجد وعنده ناس من بني عجم، فذكروا شدة أمية على الناس فذموه وقالوا: سلط علينا الدهاقين في الجباية".⁸⁵

⁸¹ الدكتور حسين عطوان: الشعر العربي بخرسان في العصر الأموي ص73، دار الجليل، بيروت، 1974م، أخبار الطوال ص355.

⁸² الشعر العربي بخرسان في العصر الأموي ص63-69، تاريخ الرسل والملوك ج7 ص362-385.

⁸³ تاريخ الدولة العربية ص270.

⁸⁴ أحمد بن يحيى البلاذري: فتوح البلدان ص273، تحقيق دي حوية، ليدن، 1968م.

⁸⁵ تاريخ الرسل والملوك ج6 ص316، الكامل في التاريخ ج4 ص446.

وظل عمال خرسان يستوفون الخراج منهم في بقية خلافة عبد الملك بن مروان، وفي خلافة الوليد وسليمان ابني عبد الملك. فلما جاء عمر بن عبد العزيز ردهم إلى أداء العشر، واستمروا يدفعون العشر في خلافة يزيد بن عبد الملك وفي معظم خلافة هشام بن عبد الملك. ثم فرض عليهم نصر بن سيار الخراج حين أصلح نظام الضرائب بخرسان.⁸⁶

وبناء على كل هذا ندرك أن خرسان كانت حقاً بيئة مناسبة لبث الدعوة العباسية لأن ظروفها السياسية والاجتماعية قد تهيأت وتأهلت لاستيعابها وقبولها مطلقاً. وهذا ما حدث بالفعل لما أطلقت نداءات الدعوة الأولى. ولم يزل يليبها الدعاة والنقباء العباسيون حتى إذا جاء أبو مسلم الخرساني بدأ الناس يستجيبون للدعوة أفواجا. وكان أكثر من دخل منهم فيها من الفلاحين وكانوا من قرى نيسابور⁸⁷، مرو الشاهجان، مرو الروذ⁸⁸، بلخ⁸⁹، طخارستان⁹⁰، خوارزم⁹¹، بخارى⁹² والسغد⁹³.

وروى الطبري أنه عندما أظهر أبو مسلم الدعوة وافاه في يوم واحد أهل ستين قرية.⁹⁵

⁸⁶ تاريخ الدولة العربية ص 277-279.

⁸⁷ مدينة إيرانية غربي مشهد، عاصمة خرسان قديماً. (معجم البلدان ج 5 ص 331)

⁸⁸ لقد سبق أن أشرنا أن المرو تنقسم إلى مرو الشاهجان ومرو الروذ.

⁸⁹ مدينة قديمة بخرسان وهي من أهل مدنها. يقال قد بناها الإسكندر وكان اسمها الإسكندرية. (معجم البلدان ج 1 ص 479)

⁹⁰ ولاية واسعة بخرسان تشتمل على عدة بلاد. (معجم البلدان ج 4 ص 23)

⁹¹ دولة قديمة نشأت في آسيا الوسطى على بحرى نهر آمودريا الأسفل في تركستان. (النجد في اللغة والأعلام ج 2 ص 234، معجم

البلدان ج 2 ص 395)

⁹² مدينة قديمة، من أعظم مدن ما وراء النهر و أحلها. (معجم البلدان ج 1 ص 353)

⁹³ ناحية كثيرة للمياه، نضرة الأشجار، متحاوية الأطياف، موقنة الرياض والأزهار، تمتد مسيرة خمسة أيام لا تقع الشمس على كثير من

أراضيها ولا تبين القرى من خلال أشجارها. وفيها قرى كثيرة بين بخارى وسمرقند. (معجم البلدان ج 3 ص 222)

⁹⁴ أنظر أخبار الدولة العباسية ص 245-279، وتاريخ الدولة العربية ص 503.

⁹⁵ تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 355.

ب) الدعوة للرضا من آل محمد

في استقرار هذا المبدأ يتبين لنا ذكاء العباسيين ودهاؤهم لأنهم نادوا بالبيعة للرضا من آل محمد ولم يجهروا بتعيين أحد وراء ذلك، واصطنعوا هذا المبدأ الغامض ليستحوذوا على عواطف الناس ويغروهم بالانضمام إليهم في المرحلة السرية من الدعوة. ثم بعد انتصارهم على الأمويين بدعوا بالتدريج يفصحون عن الحقيقة التي كانت تختفي وراء هذا المبدأ لعامة الناس، وهي أن الخلافة لهم فقط ولا حق فيها لغيرهم.

أثناء الدعوة السرية كان العباسيون يخفون إمامهم وبالغوا في ذلك لدرجة أنه لم يعرف اسم الإمام ونسبه إلا كبير الدعاة ونقبائهم وقليل من دعاةهم. أما سائر دعاةهم ومؤيديهم فلم يعرفوا الإمام، وكانوا يبايعون لرجل مجهول من أهل البيت سيتفق عليه فيما بعد. وقد ظل هذا الوضع حتى بعد إعلان الثورة بمرور الشاهجان. فإذا بلغت جيوش العباسيين مدينة أو قرية يسألون أهلها البيعة للرضا من آل محمد دون تسمية له، فإن أجابوهم إلى ذلك أمنوهم ودخلوا مدينة صلحا وإن أبوا قاتلوهم وفتحوا المدينة عنوة.⁹⁶

ومما ترتب على ذلك أن الحكام الأمويين في بعض الأحيان حينما عرفوا أن أهل البيت يستعدون لترع الخلافة منهم فلأنهم لم يعرفوا بالضبط جناح أهل البيت الذي يتوخى ذلك بل عموما الأمر وغالبا كانت تنتهي اتهاماتهم عند العلويين لكثرة ثورتهم ضد الأمويين منذ عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.

فقد قيل أن مروان بن محمد علم بأمر الدعوة إلى الرضا من آل محمد فظن أن الدعاة يدعون لعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب⁹⁷ (ت 145هـ/762م) لأنه شيخ

⁹⁶ أنظر تاريخ الدولة العربية ص 489، البدء والتاريخ ج 6 ص 59، تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 380 و 390.

⁹⁷ تابعي حليل من أهل المدينة، من رؤساء العلويين في عصره. (الأعلام ج 4 ص 78)

هذا البيت وذو سنهم. فبعث إليه فأقدمه وأخبره بما انتهى إليه من أمر الدعوة وأقمه في ذلك. فتبرأ مما نسبته إليه.⁹⁸

إن إخفاء الإمام من قبل الدعوة قد أنتج أحيانا وقائع خطيرة وحرجة للغاية، لأن بعض الدعوة كما ذكرنا سابقا لم يعرفوا من الإمام، وحتى لو عرفوه فكان عليهم أن يخفوه كل الإخفاء، وفي كلتا الحالتين دلالة على التناقض العقلي وعدم المنطق، في الأول كيف يدعو الداعي إلى من لا يلم به هو نفسه، لا يلم باسمه، نسبه، أخلاقه وأهليته لمنصب الإمام أو نقيض ذلك، ومن ثم كيف سيكون واثقا به وببرامجه السياسية، وفي الآخر كيف يستطيع أن يدعو الداعي إلى من لا يمكن أن يظهر اسمه ونسبه حتى ولو كان المدعون يلحون على ذلك ويضغطون عليه.

ويروى أن مروان بن محمد أرسل رجلا من خاصته إلى عسكر قحطبة بن شبيب الطائي، فلما غلب على جرجان تقدم إليه الرجل ليبيعه فقال له: "بايع للرضا من آل محمد". فقال: "هذه بيعة مجهولة لا يصح بها عقد". فزجره قحطبة فقال: "ما كنت لأبايع إلا لمن أعرف اسمه. فاستشرف الجند هذا القول فخاف قحطبة على نفسه وأن تفسد قلوب الجند فقال: "بايع لإبراهيم بن محمد وهو بالشرارة".⁹⁹

إذا تدبرنا مبدأ الدعوة هذا بدقة، وأساليب إشاعته، ندرك أن عددا من الفئات المتنازعة كانت تدرج تحت شمسيتها وخاصة العلويون لأجل كونهم من أهل البيت، ولذا اعتبروا أنفسهم جزءا متماسكا ومستديما من الدعوة وبالتالي طرفا ضروريا في الاستمتاع بثمرات الدعوة المتجسمة في تولية الخلافة. وكان ذلك سببا رئيسيا لأجله استغلهم العباسيون بالإضافة إلى عداوتهم تجاه الأمويين وسلطتهم، ورغبتهم الشديدة في إعادة الخلافة إلى الهاشميين. فمنهم من عين من الدعوة بالعراق ومنهم من تزعم الوفود التي أرسلت لنشر

⁹⁸ أخبار الدولة العباسية ص 389 و 393.

⁹⁹ نفس المرجع ص 391.

الدعوة في خرسان. ولأجل ذلك نرى منهم من دعا إلى العلويين ومنهم من دعا إلى العباسيين.

قال أبو الفرج الأصفهاني¹⁰⁰ (ت356هـ/966م) في ذلك: "خرجت دعاة بني هاشم إلى النواحي عند مقتل الوليد بن يزيد واختلاف كلمة بني مروان، فكان أول ما يظهرونه فضل علي بن أبي طالب وولده وما لحقهم من القتل والخوف والتشريد، فإذا استتب لهم الأمر وملكوا ادعى كل فريق منهم الوصية لمن يدعوا إليه".¹⁰¹

وفي إثر قيام الدولة ظل العباسيون ينافقون العلويين¹⁰²، يدعونهم يشاركون معهم في السعي نحو هدف واحد. وهذا لأن الدولة العباسية لا تزال جديدة لم تتوطد ولم تستقر دعائمها وأمامهم طريق طويل، إضافة إلى أن الجيش الأموي لا يزال قويا في مناطق شتى من الدولة. وإن جهرُوا بمطامعهم الحقيقية لأولد ذلك انفصال العلويين عنهم وجهرهم بمعاداتهم وإضعاف أمرهم، والله تعالى أعلم.

ولذلك نرى داود بن علي¹⁰³ (ت133هـ/750م) يبطل خلافة الخلفاء الراشدين إلا علي بن أبي طالب، فإنه صحح خلافته وارتضاها كما أنكروا خلافة الخلفاء الأمويين وأسقطها، وقرر أن خلافة أبي العباس استمرار لخلافة علي، وجعلها إحياء لحكم أهل البيت، وعدها تجديدا لما انقطع من ملك الهاشميين إذ قال: "إنه والله ما بينكم وبين رسول الله صلى الله

¹⁰⁰ من أئمة الأدب ومن الأعلام في معرفة التاريخ والأنساب والسير والآثار واللغة والمغازي. (الأعلام ج4 ص278)

¹⁰¹ مقاتل الطالبين ص233.

¹⁰² من علامات هذا النفاق العباسي أثناء الدعوة والثورة لقب إبراهيم بن محمد بن علي بـ"الإمام". هذا لأن العلويين منذ الأيام المبكرة كانوا يطلقون على علي بن أبي طالب لقب "الإمام" تعريضا لما يذهبون إليه من أنه أحق بإمامة الصلاة من أبي بكر، أي أحق بالإمامة العظمى منه. فلهم زعموا أن علي كان أفضل من أبي بكر فهو لذلك أحق منه بالإمامة أي الخلافة فحوصه بلقب "الإمام"، فظلوا يطلقون هذا اللقب على كل من جاء بعده ممن يعتقدون بأحقية في هذا المنصب. وذلك بخلاف بقية الأمة التي أطلقت على رؤساء الدولة الإسلامية أمراء المؤمنين أو الخلفاء ما عدا أبي بكر الذي كان بلقب بخليفة رسول الله. (أنظر الدكتور محمد رأفت عثمان: رئاسة الدولة في الفقه الإسلامي ص76-77، دار القلم، دبي، الطبعة الثانية، 1986م)

¹⁰³ شخصية بارزة في الأسرة العباسية. هو عم الخليفة العباسي الأول أبي العباس السفاح. كان له دور حاسم في تشريد ومتابعة الأمويين وزوال دولتهم. (الأعلام ج2 ص333)

عليه وسلم خليفة إلا علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين، وما بايعتم قط بيعة هي أهدي من بيعتكم هذه".¹⁰⁴ كما ذكر أيضا أن من غايات ثورة العباسيين ضد الأمويين اضطهاد أبناء عمومتهم العلويين وتعذيبهم على أيدي الأمويين.¹⁰⁵

ولكن في وسعنا دائما أن نلاحظ تلميحات العباسيين وإشاراتهم إلى أهدافهم الحقيقية من التقرب والتعامل مع العلويين. فأتناء الدعوة نراهم ينهون دعايتهم من مخالطة دعاة العلويين في خرسان خوفا من إثارة جدليات ذات حساسية تستطيع أن يؤدي الاقتحام فيها إلى سوء التفاهم المتبوع بالتنازع الإيديولوجي والعسكري بين الطرفين. وهذا الاحتمال ما كان يناسب العباسيين وأمر دعوتهم. ولما أرسل محمد بن علي أول دعائه إلى خرسان وهو زياد أبو محمد مولى همدان قال له: "أدع الناس إلينا وانزل في اليمن والطف بمحضر ونهأه عن رجل من أبرشهر"¹⁰⁶ يقال له غالب لأنه كان مفرطا في حب بني فاطمة".¹⁰⁷

فقد أمر محمد بن علي أبا هاشم بكير بن ماهان أن يشير على شيعتهم بالكوفة أن يعرضوا عن الانضمام إلى زيد بن علي بن الحسين¹⁰⁸ (ت 122هـ/739م) والقتال معه عندما بلغه أنه يستعد للثورة، قال أبو هاشم: "قال لي محمد بن علي: قد أظلمكم خروج رجل من أهل بيتي بالكوفة يغري في خروجه كما غر غيره فيقتل ضيعة ويصلب، فحذر الشيعة قبلكم أمره".¹⁰⁹ فقد روي عن أبي هاشم أن محمد بن علي قال له: "حذر شيعتنا التحرك في شيء مما يتحرك فيه بنو عمنا من آل أبي طالب، فإن خارجهم مقتول وقائمتهم

¹⁰⁴ قارن بين: أنساب الأشراف ج 3 ص 140 و تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 428 والكمال في التاريخ ج 5 ص 415.

¹⁰⁵ تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 426.

¹⁰⁶ يطلق على مدينة نيسابور بخرسان. هو اسم مركب من ابر وهو الغيم وشهر أي البلد. (دائرة المعارف ج 3 ص 4)

¹⁰⁷ تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 49.

¹⁰⁸ هو أبرز العلويين الذي خرج على الدولة الأموية في وقته. كان خروجه بالكوفة حيث بايعه كثير من الناس. (البداية والنهاية ج 9 ص 342-347)

¹⁰⁹ أخبار الدولة العباسية ص 230.

مخذول، وليس لهم في الأمر نصيب، وسندرك بثأرهم وسنبتلى يسعيهم، ثم لا يكون ضرر ذلك إلا عليهم".¹¹⁰

وما استمر التعاطف والتعاون بين العباسيين والعلويين وغيرهم طويلا إذ أعلن العباسيون معاني البيعة للرضا من آل محمد، ومنها أن الخلافة ميراث خالص لهم ولا تخرج منهم إلى يوم القيامة. وهذا يعني أن كل من العرب والعجم الذي يريد أن يغالبهم على الخلافة ليس مرحبا به. والحقيقة أنه ظهر كثير ممن قاومهم وحارهم ولكنهم هلكوا حتى ولو كانوا سابقا من شيعتهم ثم تطرفوا وانحرفوا. وأهلكوا أصحاب الخداشية والرواندية¹¹¹ الذين كانوا من شيعتهم، وقتل أبو العباس أبا سلمة الخلال "وزير آل محمد" سنة 132هـ/749م، وقتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم "أمين آل محمد" سنة 137هـ/754م، ونكب الخليفة هارون الرشيد البرامكة¹¹² سنة 187هـ/802م، ودس الخليفة المأمون (ت218هـ/833م) على الفضل بن سهل¹¹³ (ت202هـ/817م) من اغتاله. كما بطشوا بمن خالفهم في سياساتهم ورأى من المستحسن الخروج عليهم سواء كان من العرب أو من

¹¹⁰ نفس المرجع ص242.

¹¹¹ من أهل حرسان. قالوا بتناسخ الأرواح. وزعموا أن المنصور رجم الذي يطعمهم ويسقيهم، وعدوا قصر المنصور قصر رجم فطافوا حوله. لمزيد من التفاصيل أنظر فصلا "الصلة بين ازدهار علم الكلام ومكافحة العباسيين للشعبوية والزندقة". (تاريخ الرسل والملوك ج7 ص505)

¹¹² البرامكة أسرة فارسية ارتفع شأنها في عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد. كانت لأعضاء هذه الأسرة وزارة الدولة العباسية. (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص287 وما بعدها) (سنفصل القول عن نكبة أسرة البرامكة في عهد الرشيد في فصلنا القادم "مميزات العهد العباسي الأول السياسية والدينية")

¹¹³ من الفرس، وزير للمأمون وصاحب تدبيره. كان من الخووس وأسلم علي يد للمأمون سنة 190هـ/805م، وصحبه منذ ذلك الوقت إلى أن يلي الخلافة. كان يقال له "ذو الرياستين" لأنه لما ولي للمأمون الخلافة سنة 193هـ/808م جعل له الوزارة وقيادة الجيش معا. وكان يستر عن الخليفة ما يجري في الدولة من الفتن والحروب حتى بدأ الناس يتهمون الخليفة أنه مسحور بمجون. كما تكلم الناس أن الفضل بن سهل استولى عليه، فلما تحقق كل ذلك عند المأمون دس عليه من قتله سنة 202هـ/817م. (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص424، 564-565)

وللفضل أخ الحسن بن سهل (ت236هـ/851م). وهو كان أيضا وزيرا للمأمون وأحد كبار القادة والولاة في عصره. اشتهر بالذكاء المفرط والأدب والفصاحة وحسن التوقيعات والكرم. وهو والد بوران (زوجة المأمون). كان الحسن والفضل من أهل بيت الرياسة في الخووس وأسلما، هما وأبوهما سهل. (البداية والنهاية ج10 ص329)

العجم. ونذكر هنا كثافة ثورات العلويين التي في غالب الأمر انتهت بتشتيت صفوفهم على أيدي الخلفاء العباسيين وتشريدتهم وتعذيبهم القاسي.¹¹⁴

وبكل هذا تتضح لنا مقاصد البيعة للرضا من آل محمد وملامح مواقف العباسيين من الخلافة بشكل عام بحيث حاولوا بكل الوسائل الممكنة أن يبعدوا سائر المدعين للخلافة عنها بنظريات استندوا عليها أثناء الدعوة، وبعد قيام دولتهم، والتي في الحقيقة لا أصل لها علميا ولا تاريخيا.

ج) الدعوة للعمل بالكتاب والسنة

إن العباسيين لم يهتموا في مراكز الدعوة أي جانب في حملتهم ضد الأمويين واجتذاب تعضيد الناس لهم، واستوعبوا واستفادوا من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية. لقد لاحظوا أن الناس يعانون من ظلم الأمويين، فرأوا في ذلك فرصة امتداد أجنحة الدعوة نحو الحياة الدينية حيث احتاجوا إستراتيجية جديدة. فوعوا أنه من المستحسن إشاعة جوانب حياة الأمويين المضادة لتعليمات الدين وتعظيم ظلمهم تجاه الرعية. وأقبلوا على وعد الإصلاح ونشر العدل العام والعودة إلى مبادئ الإسلام الصحيحة، ونسقوا كل ذلك بقيام الرضا من آل محمد.

والحقيقة أن العباسيين لم يجدوا في تطبيق هذا المبدأ إلا بعد ما انحرف خدش في نهاية العشر الثاني من المائة الثانية عن منهاج الدعوة في خرسان حيث تحزب له بعض الدعاة فضلا عن كثير من الناس العاديين. فاعتبر حاملوا الدعوة وتعلموا درسا كبيرا وأدركوا الحاجة لرفع مبدأ الالتزام بأصول الدين الصافية بحيث سيعلن كل داع إتباعه لمبادئ الدين وينابيعه وسينشرها بنشر الدعوة، وإذا ابتزوا الخلافة من الأمويين فهم الذين سيقومون بتطبيقها والدفاع عنها على كافة مستويات الدولة.

¹¹⁴ سنائي التفاصيل عن كل هذه الأحداث في ثنايا البحث إن شاء الله تعالى.

ونرى رهبة زعامة الدعوة من انفضاض الناس عن الدعوة وكذا اهتمامهم العظيم بالكتاب والسنة والعمل بهما، بعد ما انحرف خدش عن إرشادات محمد بن علي. فهناك رسالة بعثها محمد بن علي إلى شيعته مع بكر حيث يتصل مما أحدث خدش من البدع وينهاهم عن الاتصال بمن اعتنق مقالته ويحثهم على التمسك بالدين وتعليماته الصحيحة، ويقول: "قد كنت أعلمت إخوانكم رأيي في خدش وأمرهم أن يبلغوكم قولي فيه. ولني أشهد الله الذي يحفظ ما تلفظ به العباد من زكي القول وخبيثه أي بريء من خدش ومن كان على رأيه ودان بدينه، وأمرهم ألا تقبلوا من أحد ممن أتاكم عني قولاً ولا رسالة خالفت فيها كتاب الله وسنة نبيه".¹¹⁵ وهناك رسالة أخرى تعزى إلى محمد بن علي وكتبها أيضاً إلى شيعته مع بكر وتركيزه على الاعتصام بالكتاب والسنة أوضح وأصرح وقال: "عليكم بحب الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة... وترك الحرام وأخذ الحلال وعرفان الحق وإنكار الباطل ولزوم الإيمان، والتفقه في القرآن وإتباع التقوى..."¹¹⁶

ولكن لتطبيق هذا المبدأ تطبيقاً ناجحاً كان لا بد للعباسيين أن يتقربوا ويتناسقوا ويتعاملوا تعاملًا حسنًا مع من له قدرة على تطبيق مبادئ الدين، ألا وهم العلماء. هذا لأن العباسيين ما احتاجوا هنا خطط وحيل سياسية محضة فقط فحسب بل كانوا في حاجة ماسة إلى نظريات وأقوال لتقوية وتسويق وتنويه أفعالهم وبرامجهم السياسية، ولا يملك تلك الإمكانية إلا العلماء الذين كانوا دائماً يحظون بنفوذ كبير بين الناس بغض النظر عن نوعية وطبيعة التوترات والانقلابات السياسية.

ولأجل ذلك كان من الدعاة متكلمون وفقهاء متخصصون مختارون من قبل كبار الدعوة، وقد أحاطوا بمشالب الأمويين ومساوئهم كما عرفوا مناقب الهاشمين ومخاسنهم. ونذكر على سبيل المثال أبا مسلم الخرساني الذي جعل على حرسه خالد بن عثمان (ت

¹¹⁵ أخبار الدولة العباسية ص212.

¹¹⁶ نفس المرجع ص210.

حول 140هـ/757م) وعلى شرطه مالك بن الهيثم (ت137هـ/754م) وعلى القضاء القاسم بن مجاشع (ت140هـ/757م) وعلى الديوان كامل بن مظفر (ت135هـ/752م)، فكان يعطي كل منهم أربعة آلاف.¹¹⁷ والقاسم بن مجاشع الذي عين قاضيا لأبي مسلم كان يصلي معه ويقص القصص بعد العصر، فيذكر فضل بني هاشم ومعاليب بني أمية.¹¹⁸

وكان بين النقباء نقيب اسمه أبو منصور طلحة بن رزيق بن أسعد وقد كان شهد حرب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ضد الأمويين وصحب المهلب بن أبي صفرة (ت83هـ/702م) وغزا معه، فكان أبو مسلم يشاوره في الأمور ويسأله بكنيته: يا أبا منصور ما تقول؟ وما رأيك؟¹¹⁹

وتروى لنا طريقة البيعة التي كان يتخذها أبو منصور على الهاشمية عمن شهد ذلك: "أبايعكم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، والطلاق والعتاق، والمشي إلى بيت الله، وعلى ألا تسألوا رزقا ولا طمعا حتى يبدأكم به ولا تكتم، وإن كان عدو أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولا تكتم".¹²⁰

إن استخدام العلماء البارزين لم ينحصر على الشؤون السياسية فحسب، بل تغلغل إلى الأمور الدينية البحتة وبصراحة إلى أمور العبادة. ويروى أن أبا مسلم طلب من سليمان بن كثير أن يصلي به وبالشيعة صلاة العيد بسفيذنج، ونصب له منبرا في العسكر وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة -ذلك لأن بني أمية يبدعون بالخطبة والأذان، ثم الصلاة بالإقامة على صلاة يوم الجمعة فيخطبون على المنابر جلوسا في الجمعة والأعياد- وأمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يكبر في الركعة الأولى ست تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسابعة، ويكبر في الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع

¹¹⁷ تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 380 و 381.

¹¹⁸ نفس المرجع ج 7 ص 366.

¹¹⁹ نفس المرجع ج 7 ص 380.

¹²⁰ نفس المرجع ج 7 ص 380.

بالسادسة، ويفتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن، وكان الأمويون يكبرون في الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفي الثانية ثلاث تكبيرات.¹²¹

وبعد قيام دولة بني العباس تحدث خلفاؤهم عن القيام بتطبيق الكتاب والسنة وشرطوا على أنفسهم أن يلزموا هذا المبدأ ولا يجيدوا عنه في سياساتهم، وبشروا الناس بالعدل والمساواة وإزالة مشكلاتهم السياسية والاجتماعية، كما تكلفوا باستئصال جميع أنواع الظلم. وهذا بالضبط ما بغى كل من أبي العباس وداود بن علي أن يؤكدوا في خطبتهم الافتتاحية بالكوفة.¹²² وقال داود بن علي في خطبته بمكة لما قدم واليا عليها: "والله ما قمنا إلا لإحياء الكتاب والسنة والعمل بالحق والعدل ورب هذه البنية، ووضع يده على الكعبة، لا نهيح منكم أحدا إلا أن يحدث بعد يومه هذا حدثا..."¹²³

ولكن الأمر احتاز هذا الحد عندما حاول العباسيون أن يسيطروا على كافة مجالات الحياة ولا سيما الحياة الدينية. وعلى الرغم من إشاعة الاعتقاد أنهم ملتزمون بالكتاب والسنة وأن الدولة الجديدة ستغدو مبنية على دعائم دينية تسرعوا إلى الاستئثار بتمثيل الكتاب والسنة وصرحوا أنهم موطن الرسالة ومهد النبوة وحمله الدين وأعلام الإسلام وحفظته وأهله.¹²⁴

وبتوالي الأحداث أضيفت صبغة جديدة لهذه القضية إذ أخذ يعلن حكام الدولة أنهم ورثوا الخلافة بأمر الله تعالى وأنهم يتصرفون بتوقيقه وهدايته.¹²⁵ وشابهت هذه التصريحات بلا شك تصريحات وأقوال الأمويين لما اعتمدوا على مذهب الجبر في الخلافة ومحاولتهم لتوطيد سلطتهم واستمالة عقول وقلوب الناس من ناحية، وهزم أحزاب أخرى مناوئة لهم من ناحية أخرى. إلا أن العباسيين قد استندوا استنادا ملحوظا على الدين واتخذوا أصوله

¹²¹ نفس المرجع ج 7 ص 357.

¹²² نفس المرجع ج 7 ص 425-428، الكامل في التاريخ ج 5 ص 65-68.

¹²³ أنساب الأشراف ج 3 ص 87.

¹²⁴ أنظر تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 425 و426، والكامل في التاريخ ج 5 ص 65.

¹²⁵ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 89.

وسيلة لتشديد حكمهم، فقبوا العلماء واستغلوهم في قضايا ومساائل سياسية واجتماعية شتى. قال ابن الطقطقي¹²⁶ (ت709هـ/1309م) في ذلك: "اعلم أن هذه دولة من كبار الدول ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك، فكان اختيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تدينا والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة".¹²⁷

د) التعاون مع الأحزاب والديانات الأخرى

لقد سبق أن أشرنا أن الدعوة العباسية كانت ذات خطة ذكية انحصرت وتركزت في اجتذاب واستجلاب أكثر عدد ممكن من الناس من جميع طبقات المجتمع الخرساني وخارجه. ولتحقيق ذلك أصلت مبادئ وأصول الدعوة التي لزمها الدعاة والنقباء في مراكز الدعوة. كما لمنا أيضا إلى أن الدعوة قد استثمرت تفاوت المجتمع الخرساني في توجيه أغلبية أطرافه نحو اتجاه مستهدف واحد، ألا وهو تأييد العباسيين في أخذ الخلافة من الأمويين. ومما لا شك فيه أن العباسيين قد نجحوا في ذلك المشروع نجاحا كبيرا بسبب طرق نشر الدعوة التي لزموها منذ أول وهلة، ومنها التسامح والتعامل أو أكاد أقول التناسق والاندماج مع الأحزاب المتباينة الإسلامية العربية والديانات المختلفة في خرسان.

ونستطيع أن نكتشف بوادر هذه السياسة في وصية إبراهيم بن محمد لأبي مسلم عندما أرسله إلى خرسان ليرأس الدعوة هناك، وأوصاه أن يحرك المشاعر والعواطف الفردية، كما نصحه أن يجمع إليه العجم ويستعين بهم مما نتج أن أغدى منهم الرسل وحملة الكتب والرسائل بينهم.¹²⁸ فاندفع العجم إلى الدعوة وأضحوا قوة بارزة فيها. ولقد كان ذلك طبيعيا لأن معظم سكان خرسان كانوا عجماء أما العرب فقلة قليلة بالقياس إليهم.¹²⁹

¹²⁶ مؤرخ، باحث، ناقد إسلامي مشهور. (الأعلام ج 6 ص 283)

¹²⁷ الفخري في الآداب السلطانية ص 123.

¹²⁸ أنظر أخبار الدولة العباسية ص 285.

¹²⁹ الشعر العربي بخرسان في العصر الأموي ص 53-62.

كما اهتم الدعاة بالعرب اهتماما بالغاً ورأوا في تنازعهم وتفانيهم وتسابقهم على السيطرة الاقتصادية والسياسية فرصة ذهبية لانضمامهم إلى صفوف الدعوة.¹³⁰

ولم يتوقف الأمر على هذا الحد فحسب، بل فتح بعض الدعاة باباً واسعاً لبعض الغلاة المتطرفين مثل الخرمية والرواندية الذين انحازوا إلى الدعوة ولم يغيروا أفكارهم واعتقادهم الغريبة، أو على الأقل انسجم تلك الأفكار مع الأفكار الإسلامية، مما ترتب عنه إيجاد أفكار ونظريات خطيرة كانت في بعض الأحيان مضادة للإسلام وتعليماته الصحيحة. ويروى أن قوماً من أصحاب أبي مسلم من أهل خراسان كانوا يقولون بتناسخ الأرواح، فيزعمون أن روح آدم عليه السلام في عثمان بن عفك، ويقولون أن أمير المؤمنين يرزقنا ويطعمنا ويسقينا، ولو شاء أن يسير الجبال لسارت، ولو أمرنا أن نستدير القبلة لاستدبرناها.¹³¹ وقال البغدادي: "الرواندية من الحلولية، قالوا بتناسخ روح الإله في الأئمة بزعمهم".¹³²

ولنتذكر هنا انحراف خدش الذي جهر بقبول بعض مبادئ الخرمية، واتخذ ذلك وسيلة لجذب أصحاب هذه الطائفة، يقول المقدسي¹³³ (ت355هـ/965م) في ذلك: "ثم لم يلبث أن غير ما دعاهم (أتباعه) إليه ومثل لهم الباطل في صورة الحق فرخص لبعضهم في نساء بعض، وهو أول من بدأ مذهب الباطنية".¹³⁴

وكان أبو مسلم قد استهوى الغلاة وغيرهم ممن ينتحلون الديانات الفارسية وفتح باب الدعوة لهم، ومن بينهم فرقة الرزامية (إحدى مجموعات الرواندية) التي كانت تعتقد بإمامة أبي مسلم، وأن روح الله تعالى قد تناسخت حتى وصلت وحلت فيه. وأيضاً

¹³⁰ أنظر الدكتور حسين عطوان: الدعوة العباسية - مبادئ وأساليب ص 66-88، دار الجيل، بيروت، 1984م، والدكتور حسين

عطوان: الوليد بن يزيد ص 433، دار الجيل، بيروت، 1981م.

¹³¹ أنساب الأشراف ج 3 ص 235.

¹³² الفرق بين الفرق ص 163.

¹³³ مؤرخ إسلامي مشهور، نسبته إلى بيت المقدس. (الأعلام ج 7 ص 253)

¹³⁴ البدء والتاريخ ج 6 ص 60-61.

مجموعة تسمى أبو مسلمية، والتي أفرطت في أبي مسلم غاية الإفراط. قال الأشعري:

"افترقت هذه الفرقة في أبي مسلم على مقالتين، فزعمت فرقة منهم تدعى الرزامية أصحاب رجل يقال له: رزام، أن أبا مسلم قتل، وقالت فرقة أخرى يقال لها: أبو مسلمية، أن أبا مسلم حي لم يمت، ويحكى عنهم استحلال لما لم يحلل لهم أسلافهم".¹³⁵

ويقول الشهرستاني¹³⁶ (ت548هـ/1153م) في الملل والنحل: "الرزامية أتباع رزام بن رزم، ساقوا الإمامة من علي إلى ابنه محمد، ثم إلى ابنه أبي هاشم، ثم منه إلى علي بن عبد الله بن عباس بالوصية، ثم ساقوها إلى محمد بن علي وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم الإمام، وهو صاحب أبي مسلم الذي دعا إليه وقال بإمامته. وهؤلاء ظهروا بخراسان في أيام أبي مسلم حتى قيل أن أبا مسلم كان على هذا المذهب لأنهم ساقوا الإمامة إلى أبي مسلم، فقالوا: له حظ في الإمامة وادعوا حلول روح الإله فيه، ولهذا أيدوه على بني أمية حتى قتلهم عن بكرة أبيهم واضطلمهم، وقالوا بتناسخ الأرواح".¹³⁷

وثمة فرقة يقال لها الشيبانية، وهي الفرقة الرابعة من الثعلبية¹³⁸، وهم أتباع شيبان بن سلمة الخارجي (ت130هـ/747م) الذي كان يقول بتشبيه الله تعالى لخلقه. وكان يعين أبا مسلم على أعدائه في حروبه، ثم انقلب عليه وقتل لأجل ذلك. وقد كفر الخوارج شيبان بن سلمة لأجل معاونته أبا مسلم.¹³⁹

¹³⁵ مقالات الإسلاميين ج1 ص94.

¹³⁶ من فلاسفة الإسلام. كان إماما في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة. صاحب كتاب الملل والنحل. (الأعلام ج6

ص215)

¹³⁷ محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: الملل والنحل ج1 ص136، تخریج محمد بن فتح الله بدران، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،

1956م، وأنظر أيضا الفرق بين الفرق ص155.

¹³⁸ الثعلبية: إحدى فرق الخوارج. هم أتباع ثعلبة بن مشكان وقيل ثعلبة بن عامر. وصارت الثعلبية ست فرق منها فرقة أقامت على

إمامة ثعلبة ولم تغل بإمامة أحد بعده. وقالوا ليس لأطفال الكافرين ولا لأطفال المؤمنين ولاية ولا عداوة ولا براعة حتى يبلغوا فيدعوا

إلى الإسلام فيقرؤا به أو ينكروه. (الفرق بين الفرق ص60، مقالات الإسلاميين ج1 ص180)

¹³⁹ الفرق بين الفرق ص60-61.

ستفصل الحديث عن كل هذه الفرق وغيرها في فصلنا "الصلة بين ازدهار علم الكلام ومكافحة العباسيين للشعبوية والزندقة".

وهكذا كان العباسيون يستغلون الأحزاب والديانات المتباينة في سبيل التغلب على عواطف الناس وتعريضهم لدعوتهم ضد الأمويين ولصالح إقامة دولة جديدة قد اختطوا أن يستبدوا في شؤونها. وبتاتا نجحت الدعوة العباسية شكرا لاستراتيجيتها وأساليبها الدهية والجسيمة. حينما ندرس مبادئ هذه الدعوة من كافة الزوايا نعي أنها كانت فعلا جذابة، ولكن كانت في الوقت نفسه غير واقعية وغير قابلة للتطبيق تطبيقا تاما في ظروف هيأها العباسيون أثناء الدعوة وبعد تحقيقها. وذلك خاصة إن حاولنا ربط تلك المبادئ ببواعث ودواعي الدعوة، ثم إن حاولنا تنسيق كل ذلك بما ترتب على نجاح الدعوة من الظواهر السياسية والاجتماعية والأهداف والغايات المحلومة عنها. لقد اختطوا، على الأقل ظاهريا، أن يخلقوا جو التعاون والتفاهم والتناسق فيما بين العرب وبين العرب والفرس على الأسس الإسلامية ليتم الاستقرار. وليجسموا ذلك نراهم يفسحون المجال الفكري والاجتماعي والسياسي للفرس، كما سعوا لتحقيق الاندماج بين الدين والسياسية ليقنعوا التقاليد والعصية القبلية. ولكن بعد تحول الخلافة إليهم أخفقوا في مجال تحقيق الوعود التي تفصحوها في إظهارها، وأخفقوا في تحقيق الأهداف التي أملوها، وذلك نتيجة لعوامل متعددة¹⁴⁰، منها خطأهم في فهم الأوضاع وعدم إمكان تناسب سياساتهم الحقيقية مع وعودهم الثورية، وبتأثير التيارات التي أثاروها، وبسبب طموح الفرس.

لقد أهمل العباسيون كثيرا من الوعود التي أشاعوها أثناء الدعوة، ونفاقهم مع أطراف أخرى أصبح جهرًا وصرخًا بعد قيام دولتهم. قال الدكتور عمر فاروق: "إن السر في نجاح الدعوة العباسية هو أنها ظهرت بواجهات مختلفة، ورفعت شعارات متنوعة من أجل أن تجذب أكبر عدد ممكن من المعارضة للحكم الأموي، وقد غير العباسيون نظرهم بعد نجاح الثورة، وبنوا حقهم على دعوى أن العباس عم الرسول ووارثه".¹⁴¹

إن العباسيين لم ينجحوا كثيرا في مجال إصلاح الوضع الاجتماعي والاقتصادي في حرسان، كما لم ينجحوا في تحقيق المساواة والعدل بين العرب والفرس، وظلت الخلافات

¹⁴⁰ أنظر الدكتور عبد العزيز الدوري: مقدمة في صدر الإسلام ص75، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثالثة، 1984م.

¹⁴¹ الدكتور عمر فاروق: بحوث في التاريخ العباسي ص71، دار القلم للطباعة، بيروت، 1977م.

الطبقية مستمرة في المجتمع بالإضافة إلى عنصر فارسي قوي جديد مما أخذت تظهر وتبلور مطامح قومية فضلا عن مطامح شخصية كانت تمثل عقبة مستديمة في طريق احتياز تلك الخلافات الطبقية. كما خيب العباسيون الطامحين في مشاركتهم في تقسيم ثمرات الثورة سياسيا، واقتصاديا، وفكريا ودينيا.

كل هذا أدى إلى وجود ثورات متعاقبة ضد دولة جديدة قد زعزعت في كثير من الأحيان دعائمها. ولا نستغرب أن تشتت وانحيار واحتضار هذه الدولة كان نتيجة هذا النوع من التوترات الشاملة التي وضعت بلا شك جذورها الأولى منذ بداية نشأة الدولة العباسية.

وأخطر من كل ذلك أن العباسيين اتخذوا الدين سبيلا لتبرير حكمهم، ولتقوية كيافهم ومركزهم، ولمواجهة المناوئين لهم والمتذمرين عليهم وعلى حكمهم. ولأجل ذلك كانت مكانة ودور العلماء في هذه الحقبة في غاية الأهمية والخطورة لأن العلماء المخلصين يمثلون الدين، ولهم في ذلك المجال الكلمة الأخيرة، وهم لذلك أهل لا يتقلبون ولا يتأرجحون بسهولة.

الفصل الثاني:

مميزات العهد العباسي الأول السياسية والدينية

١) مقدمة

إن انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني العباس لم يمثل خلق دولة جديدة، إذ أن الآخرين ساروا في أثر الأمويين في كثير من أنظمتهم وتقاليدهم. وكما يرى الدكتور شاكر مصطفى أن هذا الانتقال في واقعه العميق لم يكن أكثر من انتقال عرش من أسرة إلى أخرى مع التعديلات التي تقتضيها سنة التطور.¹ ولعل هذا صحيح ولا سيما حينما نضع في الاعتبار أن كلا الدولتين بنيتا على أسس متشابهة واستوحتا روح سياستهما من ينايع متماثلة. لأن كلا من الأمويين والعباسيين كانوا يدعون أنهم يسوسون الأمة الإسلامية بناء على مصادر الإسلام الصافية وكانوا دائما يحاولون أن يسوغوا ويبرروا ممارساتهم السياسية بتأويل نصوصها. أما الفروق التي نشاهدها بين الدولتين فهي بلا شك من مقتضيات التاريخ وخاضعة لسنن التطور الاجتماعي، لأن سلامل التاريخ لا تنقطع بل تتواصل وتطرّد والأحداث تتداخل وتتكامّل. وفي هذا الفصل نريد أن نخلل أهم مميزات العهد العباسي الأول السياسية والدينية، تمهيدا لمعالجة جوهر موضوعنا، أي موضوع الفصل بين العلماء والحكام في هذه الفترة.

٢) أقسام تاريخ الدولة العباسية

يقسم تاريخ الدولة العباسية إلى أربع فترات كالتالي:

¹ الدكتور شاكر مصطفى: دولة بني العباس ج 1 ص 165، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، 1973م.

- العصر العباسي الأول أو العصر الذهبي (132-218هـ/749-833م)
- العصر الثاني أو العصر التركي (218-334هـ/833-945م)
- العصر الثالث أو العصر البويهي² (334-467هـ/945-1074م)
- العصر الرابع أو العصر السلجوقي³ (467-656هـ/1074-1258م)

وقد دام العصر العباسي الأول ستة وثمانين عاما، وتوالى على عرش الخلافة سبعة خلفاء، هم:

- (1) عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وكنيته أبو العباس (تاريخ حكمه 132-136هـ/749-753م).
- (2) عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس المشهور أبو جعفر المنصور (136-158هـ/753-774م).
- (3) محمد بن عبد الله المنصور (المهدي) (158-169هـ/774-785م).
- (4) موسى الهادي بن محمد المهدي (169-170هـ/785-786م).
- (5) هارون الرشيد بن محمد المهدي (170-193هـ/786-808م).
- (6) محمد الأمين بن هارون الرشيد (193-198هـ/808-813م).
- (7) عبد الله المأمون بن هارون الرشيد (198-218هـ/813-833م).

في رأينا ينتهي العصر العباسي الأول -نظرا من زاوية موضوع الفصل بين العلماء والحكام- بنهاية حكم الخليفة المأمون،⁵ لأن خلافة المعتصم (تاريخ حكمه 218-

² ينتسب بنو بويه إلى أسرة فارسية حكمت في أصفهان وشيراز وكرمان وبغداد أكثر من قرن (من نهاية الصف الأول من القرن الرابع الهجري إلى بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجري) ومؤسس الإمارة البويهية هو أبو شعاع بويه وأولاده الثلاثة. (أنظر الفجري في الآداب السلطانية ص277-288)

³ ينتسب السلجوقيون إلى حدهم سلجوق بن تقاق أو دقاق (كلمة تركية معناها "القوس الحديد") من قبيلة غزنق إحدى القبائل التركية في إقليم القرغيز في آسيا الوسطى. وقد اعتنق أصحاب هذه القبيلة الإسلام على المذهب السني حينما اتصلوا بأهل حند عند مصب نهر سيحون. ثم أخذ يزداد نفوذهم بعد ذلك، وساعد على ذلك تدهور الأوضاع السياسية في بلاد ما وراء النهر. (أنظر الفجري في الآداب السلطانية ص292)

⁴ إن نهاية حكم كل خليفة يمثل سنة وفاته.

227هـ/833-841م) الذي جاء بعد الخليفة المأمون شهدت تغيرات سياسية واسعة، ومن ثم في كل مجالات الحياة الاجتماعية والفردية. ومن تلك التعديلات:

(1) كان حكم المأمون نهاية فترة النفوذ الإداري والسياسي للفرس في جسم الدولة العباسية، وقد خلفتها فترة تفوق العنصر التركي.

(2) وبعد وفاة المأمون بدأت سيادة العناصر العسكرية وأخذت الدور الرئيسي في تسيير دفة الدولة وتقرير سياستها بعد أن كانت تلك العناصر ثانوية أو مسيرة من قبل الوزراء والكتاب.

(3) وبعد المأمون انتهى ذلك التعاون الوثيق بين الخرسانيين وبين العباسيين وبدأ دور نشوء الإمارات المستقلة في إيران كالطاهرية⁶ والصفارية⁷ والسامانية⁸، وهي تمثل تعاون الأرسقراطية الفارسية مع الجماهير ضد العباسيين. وقد وصلت هذه الحركة الانفصالية أوجها مع ظهور البويهيين ثم دخولهم بغداد سنة 334هـ/945م. ولا شك أن استخدام العباسيين للفرس والتنكيل بأرسقراطيتهم كلما خشي نفوذهم وخيبة آمال الجماهير المتكررة كان له أثر في تقرب الأرسقراطية من الجماهير وظهور الإمارات.

⁵ ومن يرى أن العهد العباسي الأول ينتهي بالخليفة المأمون: الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه "العصر العباسي الأول" ص173-174، والشيخ زهير الكبي في كتابه "موسوعة حلفاء المسلمين" ص41، دار الفكر العربي، بيروت، 1994م، والدكتور عبد الفتاح أحمد الفاي في كتابه "صفحات من التاريخ الإسلامي" ص55، كلية دار العلوم، دون سنة الطبعة، والدكتور يوسف العش في كتابه "تاريخ الخلافة الراشدة" ص42، دار الفكر، بيروت، 1982م، والدكتورة نبيلة حسن في كتابها "تاريخ الدولة العباسية" (أنظر مقدمة الكتاب)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989م، والدكتور وفاء محمد علي في كتابه "الزواج السياسي في عهد الدولة العباسية" (أنظر مقدمة الكتاب)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1988م، وغيرهم.

⁶ ينتمي الطاهرية إلى إحدى الأسر الفارسية التي كانت تحتل مكانة خاصة وتتمتع بنفوذ واسع في خراسان. ويرجع الفضل في تأسيس الإمارة الطاهرية إلى طاهر بن الحسين الخرساني (ت 207هـ/822م) الذي كان واحداً من كبار قواد الخليفة المأمون. (البداية والنهاية ج 10 ص271)

⁷ يرجع تأسيس الدولة الصفارية إلى يعقوب بن الليث الصفار (ت 265هـ/878م). وكانت الأسرة الصفارية في ولاية سجستان. (شذرات الذهب ج 2 ص150)

⁸ نشأت الإمارة السامانية في المنطقة المعروفة ببلاد ما وراء النهر ثم اشتملت على بلاد خراسان وطبرستان والري وبلاد الجبل وسجستان. وينتمي السامانيون إلى إحدى الأسر الفارسية في مدينة بلخ هي الأسرة السامانية. (أنظر الدكتور حسن الباشا: دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص72، دار النهضة العربية، القاهرة، 1990م)

4) كما شهد حكم المأمون نهاية تلك الثورات العنيفة المسلحة للعلويين وبدء دعاية سرية باسمهم وتوسعها التدريجي الذي أدى إلى قيام الدولة الفاطمية.

5) ثم إن نقل العاصمة إلى سامراء⁹ كان رمزا لسياسة جديدة، وخرقا للتقاليد العباسية التي كانت ترى في بغداد معقل السلطان العباسي.¹⁰

6) وبالنسبة لموضوع بحثنا نعتبر خلافة المأمون أوج الانفصام بين القيادة الفكرية والسياسية. فكل ما وقع في عصره من محنة خلق القرآن وترقب واضطهاد العلماء إنما كانت نتيجة ضرورية ترتبت على ما سبقتها من المقدمات والمهدات في عصور من سبقه من الخلفاء العباسيين. وما أعقب وفاة المأمون من تطور الوقائع بخصوص الفصل بين العلماء والحكام لم يكن سوى امتدادا ومواصلة لتأثير الأحداث المتعاقبة إلى قبيل وفاته.

7) إن ابن خلدون جعل عهد الخلفاء المعتصم والواثق والمتوكل، أي بداية العصر العباسي الثاني، ممثلا لبداية زوال نفوذ العرب. كما رأى أن بزوال خلافة هارون الرشيد وخلافة بعض أبنائه، أي الأمين والمأمون، زالت الخلافة وحل الملك البحث محلها، ولم يبق من الخلافة بعد ذلك الوقت إلا اسمها.¹¹ ويقول الدكتور حسن الباشا، بناء على قول ابن خلدون، أن الخلفاء العباسيين المعتصم والواثق والمتوكل يكادون يمثلون عهدا خاصا للدولة العباسية ("يمكن وضعهم في مجموعة واحدة") ما بين نهاية العهد الأول المتميز بمميزاته وبين بداية العهد الثاني المتميز بمميزاته أيضا.¹²

⁹ مدينة في العراق على ضفة دجلة اليسرى شمال بغداد. وقد بناها الخليفة المعتصم سنة 221هـ/835م. (الغري في الآداب السلطانية ص231، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص109)

¹⁰ العصر العباسي الأول ص173 و174.

¹¹ المقدمة ص205-206.

¹² دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص48.

لقد مر العهد العباسي الأول على الرغم من قصره بمراحل متباعدة ولكل منها مميزات خاصة لا نجدها في غيرها. ولذلك، بجانب تقسيم هذا العهد حسب تعاقب الخلفاء في الزمن وذكر مساهمتهم للدولة والإشارة إلى عيوبهم، نستطيع أن نقسم هذا العصر إلى ثلاثة عهود رئيسية آتية:

- (1) عهد التأسيس، وأبرز خلفائه أبو جعفر المنصور.
- (2) عهد الاستقرار، وأبرز خلفائه المهدي وهارون الرشيد.
- (3) عهد الاضطرابات الداخلية والحرب الأهلية، وخلفاء هذه الحقبة الشقيقان الأمين والمأمون. وبالرغم من أن الوضع قد استقر بعد الحرب المذكورة، فإن مجرد محاولة تحويل ولاية العهد إلى العلويين من قبل الخليفة المأمون ومحنة خلق القرآن¹³، يدعو إلى إدراج الخليفة المأمون في هذا العهد¹⁴.

وقد دام العصر العباسي الثاني 116 سنة (218-334هـ/833-945م)، وانتهى سنة 334هـ/945م لما استولى بنو بويه على السلطة في بغداد. وتوالى على عرش الخلافة خمسة عشر خليفة، وهم:

- 1، أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن الرشيد (تاريخ حكمه 218-227هـ/833-841م)
- 2، أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم (227-232هـ/841-846م)
- 3، أبو الفضل جعفر المتوكل على الله (232-247هـ/846-861م)
- 4، أبو جعفر محمد المنتصر بالله بن المتوكل (247-248هـ/861-862م)
- 5، أبو العباس أحمد المستعين بالله (248-252هـ/862-866م)
- 6، أبو عبد الله محمد المعتز بالله (252-255هـ/866-868م)

¹³ ستتكم عن كل هذه الظواهر في ثانيا البحث إن شاء الله تعالى.

¹⁴ يقول محمد أبو الفضل إبراهيم، محقق كتاب "تاريخ الرسل والملوك"، أن الجزء الثامن من الكتاب، وهو الجزء الذي يغطي جميع خلفاء العهد العباسي الأول ما عدا أبي العباس السفاح، يشتمل على أخبار أشهر خلفاء الدولة العباسية، كما يشتمل على أهم أحداث الدولة العباسية. (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص5)

- 7، أبو إسحاق محمد المهتدي بالله (255-256هـ/868-869م)
- 8، أبو العباس أحمد المعتمد على الله (256-279هـ/869-892م)
- 9، أبو العباس أحمد المعتضد بالله (279-289هـ/892-901م)
- 10، أبو محمد علي المكتفي بالله (289-295هـ/901-907م)
- 11، أبو الفضل جعفر المقتدر بالله (295-320هـ/907-932م)
- 12، أبو منصور محمد القاهر بالله (320-322هـ/932-933م)
- 13، أبو العباس أحمد الراضي بالله (322-329هـ/933-940م)
- 14، أبو إسحاق إبراهيم المتقي بالله (329-333هـ/940-944م)
- 15، أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله (333-334هـ/944-945م)

وأما العصر العباسي الثالث فهو العصر الذي شاهد تولى بني بويه الحكم في بغداد. وقد دام هذا العصر 133 سنة (334-467هـ/945-1074م)، وتوالى على عرش الخلافة أربعة خلفاء، وهم:

- 1، أبو القاسم الفضل المطيع لله بن المقتدر (تاريخ حكمه 334-363هـ/945-973م)
- 2، أبو الفضل عبد الكريم الطائع لله بن المطيع (363-381هـ/973-991م)
- 3، أبو العباس أحمد القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر (381-422هـ/991-1030م)
- 4، أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله بن القادر (422-467هـ/1030-1073م)

وأما العصر العباسي الرابع فقد استهل بزوال دولة بني بويه وامتد حتى سقوط بغداد وقتل الخليفة العباسي الأخير المستعصم على يد المغول في سنة 656هـ/1258م. ومن أهم مميزات هذا العصر أن السلاجقة ظهرُوا كقوة حربية وسياسية تحاهد في سبيل الإسلام وتنتصر للمذهب السني. وقد توالى على عرش الخلافة أحد عشر خليفة، وهم:

- 1، أبو القاسم عبد الله عدة الدين المقتدي بأمر الله (تاريخ حكمه 467-

487هـ/1074-1094م)

- 2، أبو العباس أحمد المستظهر بالله (487-512هـ/1094-1118م)
- 3، أبو منصور الفضل المسترشد بالله (512-529هـ/1118-1134م)
- 4، أبو جعفر المنصور الراشد بالله (529-530هـ/1134-1135م)
- 5، أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله (530-555هـ/1135-1160م)
- 6، أبو المظفر يوسف المستنجد بالله (555-566هـ/1160-1170م)
- 7، أبو محمد الحسن المستضيء بأمر الله (566-575هـ/1170-1179م)
- 8، أبو العباس أحمد الناصر لدين الله (575-622هـ/1179-1225م)
- 9، أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله (622-623هـ/1225-1226م)
- 10، أبو جعفر المنصور المستنصر بالله (623-640هـ/1226-1242م)
- 11، أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله (640-656هـ/1242-1258م)

3) أهمية خطبة أبي العباس السفاح الأولى وخطبة عمه داود بن علي في الكوفة

في حديثنا عن الدعوة العباسية حللنا تاريخها وأصولها التي اعتمد العباسيون عليها، كما أشرنا إلى مدى التزامهم بتلك الأصول بعد إقامة دولتهم، إلا أن ذلك لم يتعد إطار نقاشنا عن الدعوة باعتبارها بادرة واضحة للسياسة العباسية العامة وتمهيدا لدولة جديدة ستمتاز بمميزاتها الخاصة. وفي هذا الفصل سنهتم بدراسة سمات هذه الدولة الجديدة في عهدها الأول باقتصرنا على الجوانب السياسية والدينية، مما سيسمح لنا بكشف وتحليل العلاقات بين العلماء والحكام في هذه الفترة الزمنية تحليلا علميا، وذلك موضوع ومحل اهتمامنا في الفصول اللاحقة بإذن الله تعالى.

وقبل بداية حديثنا عن مميزات هذا العهد من المفيد ذكر خطبة الخليفة الأول أبي العباس في إثر توليته لهذا المنصب وخطبة عمه داود بن علي، حيث نرى فيهما تلميحات سياسية جديدة بخصائصها الرئيسية. وإن لم تكن هاتان الخطبتان تصوران دستوراً شاملاً

للدولة، فهما على الأقل زرعنا بذورا ووضعتا قواعد جوهرية ستبنى عليها الدولة العباسية. ومهما يكن من أمر فإننا نستطيع أن نجد بطريق مباشر أو غير مباشر نقاط الاتصال بين هذين الخطبتين والتطورات اللاحقة في الدولة العباسية، وخاصة في عهدها الأول.

وهذا نص خطبة أبي العباس: "الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرامة، وشرفه وعظمه، واختاره لنا وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به، والذابين عنه والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابته، وأنشأنا من آبائه وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته، جعله من أنفسنا عزيزا عليه ما عنتنا، حريصا علينا بالمؤمنين رؤوفا رحيما، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتابا يتلى عليهم، فقال عز من قائل فيما أنزل من محكم القرآن: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا} ¹⁵ وقال: {قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى} ¹⁶ وقال: {وأنذر عشيرتک الأقربين} ¹⁷ وقال: {ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى} ¹⁸ وقال: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى} ¹⁹ فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفى والغنيمة نصيبنا تكرامة لنا وفضلا علينا والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، فشاحت وجوههم! ثم ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسدا، ورفع بنا الخسيسة، وتم بنا النقيصة وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة في دينهم ودنياهم، وإخوانا على سرر متقبلين في آخرتهم، فتح الله

¹⁵ سورة الأحزاب 33.

¹⁶ سورة الشورى 23.

¹⁷ سورة الشعراء 214.

¹⁸ سورة الحشر 7.

¹⁹ سورة الأنفال 41.

ذلك منة ومنحة لمحمد صلى الله عليه وسلم فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم، فحوروا مواريث الأمم فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها وأعطوها أهلها وخرجوا خماسا منها. ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا وتدارك بنا أمتنا، وولى نصرنا والقيام بأمرنا، ليمن بنا على الذين استضعفوا في الأرض وختم بنا كما افتتح بنا. ولني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاتكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومترل مودتنا. أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم، حتى أدرستم زماننا وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا، وقد زدكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير".²⁰

إن مضمون الخطبة واضح جداً في حين أن رسائلها أوضح. فقد برزت فيها أهم طيات واتجاهات الدولة العباسية وأسستها التي يعتبر أبو العباس أحد مؤسسيها، ومما يتبين منها:

(1) أن الثورة العباسية قامت من أجل الإسلام الذي فشل الأمويون في تطبيق مبادئه، على حد قول أبي العباس، وتنديده بسياسة الأمويين وظلمهم للناس، وكيف أن العباسيين هم الذين وضعوا نهايتهم.

(2) أن للعباسيين الحق بالخلافة لأنهم أقرباء الرسول صلى الله عليه وسلم من جهة عمه العباس بن عبد المطلب الذي توفي بعد وفاة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم.

(3) أن الثورة العباسية تعني العدالة للمظلومين والمستضعفين من الناس.

²⁰ تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 425 و 426، والكمال في التاريخ ج 5 ص 65 و 66.

4) وتعني الثورة كذلك انتصار العراق على الشام بعد الكفاح المرير الذي خاضه العراق خلال العصر الأموي، وقد أشار الخليفة إلى ثورات أهل البيت مثل الحسين بن علي سنة 60هـ/679م، والمختار الثقفي (ت 67هـ/686م)²¹ سنة 66هـ/685م المعروف باسم ابن المنقب، وعبد الله بن معاوية الجعفري (ت 129هـ/746م)²² سنة 129هـ/746م، وزيد بن علي بن الحسين (ت 122هـ/739م)²³ سنة 122هـ/739م.

5) وعد الخليفة بزيادة العطاء إلى مائة درهم وذكرهم بأنه السفاح المبيح.

6) ولكنه حذرهم من عدم الطاعة وأية حركة قائلا بأنه الناصر المبير.

7) وبين موضع العباسيين من الإسلام وأهله وأنهم بنو هاشم وأهل البيت، ولأجل ذلك هم أحق الناس بالخلافة، وأما غيرهم من المدعين للخلافة من بني أمية والعلويين وبعض الأطراف المتطرفة فلا أمل لهم في ذلك.²⁴

وأثناء الخطبة كان أبو العباس موعوكا فاشتد به الوعك فجلس على المنبر فصعد داود بن علي فقام دونه على مراقبي المنبر فألقى خطبته. ويبدو من مضمون الخطبة أن مهمتها لم تكن إلا تكرار الإلحاح على بعض القضايا التي هي في غاية الأهمية بالنسبة للعباسيين ودولتهم جديدة النشأ، ولكن بصيغة مخالفة وتعبير أوضح. ونراه يقول عن الخلافة أنها بمثابة ميراث من النبي صلى الله عليه وسلم وأنها تعني انكشاف غطاء الدنيا وإشراف

²¹ من أهل الطائف، من زعماء التاترين العلويين على بني أمية في وقته. ثار على الحكم الأموي أثناء خلافة مروان بن الحكم.

(شذرات الذهب ج 1 ص 74)

²² من شجعان الطالبين وأحودهم وشعرانهم. ثار على الحكم الأموي قبل زوال الدولة الأموية سنة 129هـ/746م، والخليفة يومئذ

مروان بن محمد بن مروان وهو آخر خلفاء الدولة الأموية. (الفخري في الآداب السلطانية ص 138، الأعلام ج 4 ص 139)

²³ الإمام، يقال له زيد الشهيد. كان من عظماء أهل البيت علما وزهدا وورعا وشجاعة ودينا وكرما. ثار على الحكم الأموي أثناء

خلافة هشام بن عبد الملك. (الفخري في الآداب السلطانية ص 132)

²⁴ أنظر الدكتور فاروق عمر: الخلافة العباسية ص 77 و 78، دبي، الامارات العربية، الطبعة الأولى، 1983م.

أرضها وسمائها وإعادة الحق إلى نصابه. أي أخذت الأمور تسير سيرورة طبيعية ومطلوبا ووفقا لإرادة الله سبحانه وتعالى وسنته في الكون. كما ركز على التنديد بالأمويين تنديدا مفرطا وإظهار مثالبهم وعيوبهم وظلمهم تجاه الرعية. ولم يفته أن يمدح جهود العباسيين في القضاء على الدولة الأموية ووعد المستمعين بالإصلاح العام والإقضاء التام بالسلف الأبرار الأخيار. ولكن ذلك لا يتحقق إلا بتقوية العلاقات مع أحلافهم، ولذا خصص جزء كبيرا من الخطبة لإظهار مواقفهم من كل من الخرسانيين والعلويين.

وهذا نص خطبته إذ يقول: "الحمد لله شكرا شكرا الذي أهلك عدونا وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. أيها الناس الآن أقشعت حنادس الدنيا وانكشف غطاؤها وأشرقت أرضها وسمائها، وطلعت الشمس من مطلعها وبزغ القمر من ميزغه، وأخذ القوس باريها وعاد السهم إلى مترعه، ورجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم. أيها الناس إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا، ولا نحفر نhra ولا نبني قصرا، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم ومهظنا من شؤونكم، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشند علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستشارهم بفيثكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم. لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وآله وذمة العباس رحمه الله، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. تبا تبا لبني حرب بن أمية وبني مروان! أثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم وغشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد التي بها استلذوا تسربل الأوزار، وتجلبب الآصار، ومرحوا في أعنة المعاصي وركضوا في ميادين الغي، جهلا باستدراج الله وأمنا لمكر الله، فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق، فبعدا للقوم الظالمين! وأدالنا الله من مروان، وقد غره بالله الغرور، أرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه، فظن عدو الله أن لن نقدر عليه فنادى حزبه وجمع مكايده ورمى بكتائبه، فوجد أمامه وورائه وعن يمينه وشماله، من مكر الله وبأسه ونقمته

ما أمارت باطله ومحقق ضلاله، وجعل دائرة السوء به، وأحيا شرفنا وعزنا ورد إلينا حقنا وإرثنا.

أيها الناس، إن أمير المؤمنين نصره الله نصرا عزيزا، وإنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة، أنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر فيه شدة الروعك، وادعوا الله لأمر المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين، الشاب المتكهل المتمهل المقتدي بسلفه الأبرار الأخيار، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ومناهج التقوى.

فجعج الناس له بالدعاء، ثم قال: يا أهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا وأفلح بهم حاجتنا وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم تنتظرون وإليه تتشوفون، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم، وبيض به وجوهكم وأدالكم على أهل الشام، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام، ومن عليكم بإمام منحه العدالة وأعطاه حسن الإيالة. فخذوا ما آتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا، ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم، وإن لكل أهل بيت مصرا وإنكم مصرنا. ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد -وأشار بيده إلى أبي العباس- فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا".²⁵

²⁵ تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 426-428، والكمال في التاريخ ج 5 ص 66-68.

4) أبرز المميزات السياسية والدينية للعهد العباسي الأول

كانت أصول الدولة العباسية المبكرة بلا شك من دعائمها الرئيسية طوال عصرها الأول. وعندما نخلل سياسات خلفاء هذا العصر بعين الناقد المدقق المتفحص وخاصة من منظور موضوعنا "الفصل بين العلماء والحكام في العهد العباسي الأول" ندرك أن الدولة العباسية في عهدها الأول قد امتازت بـمميزات رئيسية هي:

- أ) بروز العنصر الفارسي.
- ب) الصراع مع العلويين.
- ج) امتزاج السياسة بالدين.
- د) استيعاب بعض النظريات الإسلامية المنحرفة لتدعيم السياسة.
- هـ) محاولة تقرب الحكام من العلماء.
- و) ولاية العهد.

أ) بروز العنصر الفارسي

يقول الجاحظ (ت 255هـ/868م)²⁶ أن دولة بني العباس أعجمية خرسانية ودولة بني مروان أموية عربية.²⁷ ويرى المسعودي أنه باستخدام العباسيين للموالي سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها.²⁸

إن في القولين المذكورين وغيرهما من هذا القبيل مبالغة شديدة يدحضها الواقع التاريخي ويظهر شيئا آخر تماما. إنه صحيح أن الفرس أصبحوا في الدولة العباسية وخاصة في عهدها الأول ذوي نفوذ كبير، وأعطيت لهم بعض المناصب ذات الأهمية البالغة مثل

²⁶ كبير أئمة الأدب. رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة. مولده ووفاته بالبصرة. فُلج في آخر عمره. (الأعلام ج5 ص74)

²⁷ البيان والتبيين ج3 ص206.

²⁸ مروج الذهب ج8 ص292، طبعة باريس.

الوزارة، كما أن الجيش العباسي كان يتألف من فرق عربية وخرسانية. يقول المسعودي أن المنصور أول من استعمل مواليه وغلماؤه وصرفهم في مهماته وقدمهم على العرب فامتثلت ذلك الخلفاء من بعده.²⁹ ولنذكر في هذا الصدد دور أبي سلمة الخلال عند أبي العباس وأبي مسلم عنده وعند شقيقه المنصور، وكذلك عبد الله ابن المقفع (ت 145هـ/762م)³⁰ عنده، ثم أسرة البرامكة منذ اتصال خالد بن برمك (ت 163هـ/779م) بمحمد بن علي ثم بإبراهيم الإمام بعده حتى خلافة هارون الرشيد، ثم دور بني سهل في الحرب الأهلية بين الأميين والمأمون وإسهامهم في تغلب الثاني.

وعلى الرغم من كل هذا نرى أن معظم المناصب الرئيسية للدولة مثل قيادة الجيش وولاية الأمصار ظلت تحت هيمنة العائلة المالكة خاصة والعرب عامة. وظلت اللغة العربية لغة السياسة والثقافة والأدب. كما بقي الناس يترعون إلى الفخر بالنسب العربي وبالولاء العربي. فأبو مسلم الخرساني انتحل لنفسه نسبا عربيا والشاعر والبة بن الحباب (ت 170هـ/786م) كان يدعي النسب الى العرب، وإسحاق الموصلي (مطرب الرشيد) ذهب إلى خازم بن خزيمة ليتشرف بالولاء له.³¹ ولا يغيب عن ذهننا اعتزاز كثير من الفرس القوي بكونهم فرسا واستهزائهم بالعرب وحضارتهم العربية واستصغار كل ما يتعلق بهم، ومحاولاتهم المستدمرة في جميع الميادين أن يسيطروا على العرب وبالتالي يقبلوا على توسيع العناصر الفارسية.³² ونذكر هنا بعض أبيات الشعارين المشهورين في العهد العباسي الأول أبي نواس (ت 195هـ/810م)³³ وبيشار بن برد (ت 167هـ/783م)³⁴ حيث نجد فيها نواة هذه الظاهرة في الحقبة التي نحن بصدددها، فقال أبو نواس:

²⁹ نفس المرجع ج 8 ص 291 و 292.

³⁰ كاتب مفوه، كان يكتب للمنصور. مترجم كثير من الكتب من الفارسية إلى العربية. أسلم متأخرا على يد عيسى بن علي عم السفاح والمنصور. كان متهمًا بالزندقة. (البداية والنهاية ج 10 ص 98)

³¹ أنظر العصر العباسي الأول ص 37، وضحى الإسلام ج 1 ص 23-26.

³² ومن تلك الميادين العلم وتطور الحياة الفكرية. سنشير إلى ذلك في ثابا البحث بإذن الله تعالى.

³³ من أبرز شعراء العهد العباسي الأول. نشأ بالبصرة وتآذب بها على مجموعة من العلماء. رعى الميل إلى الشعبية والأديان الفارسية. سنفصل عنه الذكر في فصلنا "الصلة بين ازدهار علم الكلام ومكافحة العباسيين للشعبية والزندقة". (البداية والنهاية ج 10 ص 237)

وتبلى عهد جدتها الخطوط	دع الاطلاع تسفيها الجنوب
تخف بما النجبية والنحيب	وخل لراكب الوجناء أرضا
وأكثر صيدها ضيع وذيب	بلاد نبتها عشر وطلح
ولا عيشا فعيشهم حديب	ولا تأخذ عن الأعراب لهوا
رقيق العيش بينهم غريب	دع الألبان يشربها رجال
ولا تخرج فما في ذاك حوب	إذا راب الحليب قبل عليه
يطوف بكأسها ساق أديب	فأطيب منه صافية شمول
عليك ومن تساقطه يذوب	يكاد من الدلال إذا تثنى
وهذا العيش لا اللبن الحليب ³⁵	فهذا العيش لا خيم البوادي

وكذلك قوله:

يقاسي الريح والمطر	دع الرسم الذي دثرا
في اللذات والخطرا	وكن رجلا أضاع العلم
وسابور لمن غبرا	ألم تر ما بنى كسرى
والفرات تفيأت شجرا	منازه بين دجلة
عنها الطلح والعشرا	بأرض باعد الرحمن
يرابيعا ولا وحررا	ولم يجعل مصايدها
تراعى بالملأ بقرا	ولكن حور غزلان
من حافاتها زمرا	وإن شئنا حثثنا الطير
يباكر شرها الخمررا	وإن قالوا اقتلوا عنكم

³⁴ من شعراء العهد العباسي الأول البارزين. ولد أعمى، وقال الشعر وهو دون عشر سنين. له التشبيهات التي لم يهتد إليها البصراء. ويقال أن له ثلاثة عشر ألف بيت من الشعر. أنهم أنه يحيل إلى الشعرية والأديان الفارسية فقتله المهدي لأجل ذلك. سنفصل عنه القول في فصلنا "الصلة بين ازدهار علم الكلام ومكافحة العباسيين للشعرية والزندقة". (البداية والنهاية ج 10 ص 153)

³⁵ الحسن بن هانئ بن صباح أبو نواس: ديوان أبي نواس ص 11، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، بيروت، 1953م.

بقفرتها ولا وبرا	فذاك العيش لا سيدا
بها العصفور منحجرا	بعازب حرة يلفى
في الأعراب معتبرا	إذا ما كنت بالأشياء
وردت فلم تجد صدرا	فإنك أيما رجل
الجفاة الجلف والصحراء... ³⁶	ومن عجب لعشقتهم

ونذكر أيضا أن بشار بن برد، كما يروي صاحب الأغاني، كان كثير التلون في ولاته، شديد التشعب والتعصب للعجم.³⁷ ويروى أنه دخل يوما على المهدي فسأله المهدي: "فيمن تعتد؟" فقال له بشار: "أما اللسان والزي فعريان، وأما الأصل فعجمي، كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين:

ونبت قوما بهم حنة	يقولون من ذا وكنت العلم
الا أيها السائلي جاهدا	ليعرفني انا أنف الكرم
نمت في الكرام بني عامر	فروعي وأصلي قريش العجم ³⁸

وأهم بشار بالزندقة³⁹ فضرب سبعين سوطا فمات منها.⁴⁰ ويروى أنه كان يفضل النار على الأرض ويصوب رأي إبليس في امتناعه من السجود وقال:

³⁶ نفس المرجع ص57.

³⁷ الأغاني ج3 ص138.

³⁸ نفس المرجع ج3 ص138.

³⁹ الزندقة كلمة فارسية معربة، وهي بالفارسية زندكراي، يقول بدوام بقاء الدهر. والزندقة الضيق، وقيل: الزنديق منه لأنه ضيق على نفسه. (لسان العرب ج10 ص147)

كان الزنادقة في المجتمع الإسلامي في بداية الأمر هم المانوية الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر والزندقة. ولكن اتسع المعنى لهذا المفهوم واشتمل على بقية ديانات فارسية قديمة من مثل المزدكية، والديسانية وغيرها. وكل من اعتنق هذه الديانات كان يعد زنديقا. ثم اتسع معنى الزندقة أكثر من هذا فشمل الدهريين الملحدين وسائر أصحاب المعتقدات الضالة، بل أطلق على المتشككين وكل منجرد من أحكام الدين فكرا وعملا. (أنظر أحمد بن عبد الخليم بن تيمية: بغية المراتد ص338، تحقيق الدكتور موسى بن سليمان الدويش، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى، 1988م، الدكتور عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص37، سينا للنشر، مصر، الطبعة الثانية، 1993م، لجنة من العلماء والباحثين: الموسوعة العربية الميسرة ج1 ص929، دار الشعب، دون سنة الطبعة، تاريخ الرسل والملوك ج8 ص220)

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار⁴¹

وعلى كل حال، فإن الحكم العربي لم ينته بإفضاء الخلافة إلى العباسيين، ولكن الامتيازات التي كانت لهم على العناصر الأخرى في الدولة قد انتهت. والعصر العربي الخالص في تاريخ الإسلام قد زال. فكانت دولة العباسيين إسلامية أممية والعرب صاروا فقط عنصرا أساسيا من بين عناصرها. وبعض الظروف السياسية كحركة أبي مسلم وثورة المأمون، هي التي أبرزت الفرس من بين شعوب الدولة ولكن الخلفاء اختصوا دوما بهم، ولا بهم وحدهم.⁴²

وكان هذا النفوذ أمرا طبيعيا ونتيجة تطور الأوضاع السياسية والاجتماعية الجديدة لأن الدولة الأموية كانت عربية بحتة مما أدى إلى عدم اطمئنان وقناعة ورضا الأمم الأخرى بهم، أي الأمم الإسلامية غير العربية. استغل العباسيون هذه الظاهرة السلبية وهم يدعون إلى إخفاق تلك الدولة ويدعون إلى أنفسهم ويتكون في ذلك على بعض تلك الأمم المضطهدة. وقبل نشأة دولتهم تعاون العباسيون مع غير العرب ومع عناصر غير عربية، وكان هذا التعاون متفاوتا في طبيعته بحيث اختصوا بالفرس من بين عناصر أخرى وأطلقوا عليهم اسم الشيعة⁴³ والأنصار والأبناء. واستنادهم على الفرس بعد نجاح الدعوة كان مجرد مواصلة واطراد لاستنادهم عليهم وتعاونهم معهم إبان الدعوة والثورة ضد الأمويين.

غير أن هذا النفوذ مهما كانت دواعيه ونوعيته فإنه لم يكن مقررًا في دستور الدولة، بمعنى أنه ما كان حقيقيا وفعليا كما لم يكن هناك ضمان دوامه. لقد بني نفوذ الفرس هذا على المصالح السياسية والشخصية في حين، وعلى العواطف في حين آخر، وهذه البواعث

⁴⁰ وفيات الأعيان ج 1 ص 273.

⁴¹ تاريخ الإسلام ج 10 ص 91.

وسفصل القول عن ظاهري الشعبية والزندقة في العصر العباسي الأول في ثابا البحث بإذن الله تعالى.

⁴² دولة بني العباس ج 1 ص 167.

⁴³ تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 427، ومروج الذهب ج 3 ص 226 و 227.

غير ثابتة، وقابلة للتغير والتقلب السريع تحت الظروف الطارئة. وهذا بالضبط ما حدث لأبرز الشخصيات الفارسية في العصر الأول للدولة العباسية لما رأى الخلفاء أن نفوذهم قد تعاظم وأهم أخذوا يسيطرون عليهم فنكلوا بهم بدون تردد كبير وبدون لومة لائم، ومن أكثرهم شهرة أبو سلمة الخلال مع أبي العباس، وأبو مسلم الخرساني مع أبي جعفر المنصور، وأسرة البرامكة مع هارون الرشيد.

قتل أبي سلمة الخلال

من المعلوم أن أبا سلمة الخلال كان زعيم الدعاة بالكوفة في عهد إبراهيم الإمام. وبعد نجاح الدعوة العباسية أراد أن يصرف الخلافة من العباسيين إلى العلويين. وسبب ذلك كما يعتقد الدكتور فاروق عمر، أنه لم يكن واثقا من أبي العباس حيث أن علاقته به لم تكن وثيقة كعلاقته بإبراهيم، وقد أدرك الخلال أن تسلم أبي العباس للسلطة ربما سيحدد من نفوذه القوي الذي أخذ يتعاظم خاصة بعد نجاح الثورة وسيطرة الخرسانيين على الكوفة، ولذلك حاول الخلال أن يجد شخصية أخرى هاشمية غير عباسية ينصبها خليفة ويحتفظ هو بنفوذه السياسي الكبير، ذلك لأنه سيكون صاحب الفضل على الخليفة الجديد وسيلعب دور (صانع الملوك) في الدولة الجديدة.⁴⁴

ولذلك حسم الخليفة في أمر قتل الخلال، فنصحه بعض أصحابه أن يستشير أبا مسلم ألا يستوحش ويرتاب.⁴⁵ فكتب له أبو العباس عن خيانة أبي سلمة فأجاب له أبو مسلم: "إن كان رابك من ريب فاضرب عنقه".⁴⁶ ولكن الخليفة لم يفعل ذلك خوفا من التوترات والاضطرابات في خرسان، والدولة لا تزال في مرحلة الطفولة، وطلب من أبي مسلم أن يرسل أحد رجاله لقتل الخلال ففعل.⁴⁷

⁴⁴ الخلافة العباسية ص75.

⁴⁵ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص90، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، 1938م.

⁴⁶ الإمامة والسياسة ج2 ص231.

⁴⁷ تاريخ الرسل والملوك ج9 ص140 و 141، المطبعة الحسينية، القاهرة، دون سنة الطبعة.

وثمة رواية أخرى تبرئ الخليفة من قتل الخلال وتعزي الأمر إلى أبي مسلم نفسه لأجل حسده لمركز الخلال السياسي والاجتماعي. ويقول الدينوري أن أبا مسلم لما سمع أن الخليفة ولي أبا سلمة جميع ما وراء بابه وجعله وزيرا وأسند إليه جميع أموره أرسل أحد قواده وأمره بقتل الخلال.⁴⁸

ويروي المسعودي أنه "لما سمع أبو مسلم بخيانة الخلال أشار على الخليفة بقتله لأنه نكث وبدل وغير، ولكن الخليفة رفض، فطلب أبو مسلم من داود بن علي ومن أبي جعفر حثه على قتله فرفض أبو العباس قائلا: ما كنت لأفسد كثير إحسانه وعظيم بلائه... بزلة كانت منه. فلما سمع أبو مسلم بذلك خاف من ناحية أبي سلمة أن يقصده بالمكروه فوجه جماعة من ثقات أصحابه في أعمال الحيلة في قتل أبي سلمة".⁴⁹

ومهما يكن من الأمر فإن قتل أبي سلمة كان معقولا حينما نتذكر عظمة نفوذه في الدولة، وفي الوقت نفسه محاولة خيانتته لأبي العباس في اثر نجاح الدعوة، وعدم طاعته المطلقة للخليفة، وكل ذلك يمثل بلا شك خطرا عظيما على الخليفة والدولة العباسية الجديدة. ويروى أن الخلال كان يظهر الإذلال والقدرة على الخليفة،⁵⁰ وأنه كان ينفذ الأمور من غير مؤامرة،⁵¹ وصار لزاما على أبي العباس أن يقتله ليتقي شره.

⁴⁸ الأخبار الطوال ص 368.

⁴⁹ مروج الذهب ج 3 ص 199.

⁵⁰ الإمامة والسياسة ج 2 ص 231.

⁵¹ الأخبار الطوال ص 368.

قتل أبي مسلم الخرساني

كان أبو جعفر المنصور أول من أدرك خطورة أبي مسلم للدولة العباسية فألح على شقيقه أبي العباس بضرورة التخلص منه إلا أن أبا العباس توفى دون أن يقدم على اتخاذ خطوة حاسمة ضده.

وبعد أن تولى أبو جعفر المنصور الخلافة سنة 136هـ/753م عقد العزم على التخلص من أبي مسلم الذي ظل يشكل خطرا كبيرا على الدولة. وأول ما فعله كان إرساله لقتال عمه عبد الله بن علي (ت 147هـ/764م) الذي لم يعترف بخلافة المنصور وادعى لنفسه معتقدا أن الخليفة السابق قد عهد إلى من سيقتل مروان، وهو الذي قاتله وقتله.⁵² وكان سبب انتداب المنصور لأبي مسلم لقتال عمه أملة أن يتخلص من أحدهما، وقد عبر عن ذلك وزير المنصور أبو أيوب المورياني قائلا: "نحن لأبي مسلم أشد قسمة منا لعبد الله بن علي إلا أنا نرحو واحدة".⁵³

ودارت الحرب بين أبي مسلم وعبد الله بن علي حوالي خمسة أشهر، وقد زادت هزيمة عبد الله بن علي في عصيان أبي مسلم ونفوذه في الدولة. وقد عرف ذلك المنصور جيدا ولذا أرسل إليه رسولا ليحصى عليه الغنائم وبالتالي ليشعره بأنه لا يزال أحد عماله وتحت رقابته، فغضب أبو مسلم وقال: "أؤمن على الدماء ولا أؤمن على الأموال؟" وتناول أبا جعفر بلسانه وأراد أن يقتل الرسول لولا تدخل أصحابه ولو لا ادعاء الرسول بأنه ما جاء إلا للتهنئة.⁵⁴

إن شخصية الخليفة المنصور وتصرفات أبي مسلم وعدم إمكانية التناقص بينهما أثارت الإحساس بعدم الثقة فيما بينهما وسرع من وقوع الأزمة الحقيقية. ويبدو أن كليهما

⁵² مروج الذهب ج 3 ص 188.

⁵³ تاريخ الرسل والملوك ج 9 ص 160.

⁵⁴ تاريخ اليعقوبي ج 3 ص 102 و 103، طبعة النجف، 1939م.

عرف ذلك معرفة كاملة، إلا أنهما قد تصرفا بالعناد الشديد وما أرادا التسوية والحل السليم. فنذكر هنا حادثين على سبيل المثال يدلان على ذلك:

الأول: عند وفاة أبي العباس أرسل أبو مسلم رسالة إلى المنصور يعزيه دون أن يهنته بالخلافة، فأنكر المنصور ذلك. والثاني: لما سار أبو مسلم لقتال عبد الله بن علي أمر الخليفة الحسن بن قحطبة والي الجزيرة أن يلحق به ويراقب أعماله ففعل، وأخذ يرسل التقارير على تصرفاته فأثار مخاوف المنصور وخاصة عندما كتب إليه: "إني قد ارتبت بأبي مسلم منذ قدمت عليه، ولا يأتي الكتاب من أمير المؤمنين إلا أن يقرأه ثم يلوي شذقه ويسخر منه".⁵⁵

وكان أبا مسلم أدرك أن الخلاف بينه وبين المنصور بلغ ذروته فقرر التوجه إلى خراسان للاعتصام بها دون أن يستأذن الخليفة بذلك، فلما علم المنصور بذلك خاف من انفصاله حيث يصعب إخضاعه فحاول صرفه عن خراسان وكتب إليه: "قد وليتك الشام ومصر فهي خير لك من خراسان. فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين". إن مضمون هذه الرسالة واضح جدا حيث ود المنصور أن يعرف أبا مسلم بمواقفه منه وخططه التي وضعها بخصوص مستقبله السياسي، و قصد المنصور إضعاف مركز أبي مسلم لكره أهل الشام للخراسانيين ولبعده من أنصاره المخلصين بخراسان، إضافة إلى أنه سيكون قريبا من الخليفة من حيث يتسنى له مراقبته. و فطن أبو مسلم لغرض المنصور فغضب وقال: "وهو يوليبي الشام ومصر وخرسان لي"⁵⁶

إلا أن أبا مسلم أدرك أهداف المنصور وواصل سيره نحو خراسان. وجرى تبادل الرسائل بينهما.⁵⁷ ثم أقدم المنصور على خطوة موفقة حين قرر أن يولي أبا داود خالد بن إبراهيم الذهلي (ت140هـ/757م) على خراسان، وكان الأخير نائبا لأبي مسلم هناك،

⁵⁵ تاريخ الرسل والملوك ج9 ص160.

⁵⁶ نفس المرجع ج9 ص161.

⁵⁷ نفس المرجع ج9 ص162، مروج الذهب ج3 ص217، وملتخصر في أخبار البشر ج1 ص214.

فأرسل أبو داود إلى أبي مسلم محذرا إياه من مغية العصيان ومخالفة المنصور، وقال: "إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم، فلا تخالف إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه،"⁵⁸ وبذلك قطع المنصور خط الرجعة على أبي مسلم وأرغمه على العودة إلى العراق، وحررت مقابلة بينهما انتهت بقتل أبي مسلم سنة 137هـ/754م.⁵⁹

وكانت التهم التي وجهها المنصور إلى أبي مسلم كما تذكر المصادر التاريخية، كما يلي:

- (1) تقدمه على المنصور في طريق الحج وعدم انتظاره إياه في طريق الرجوع حينما جاءه خبر وفاة أبي العباس.
- (2) قتله سليمان بن كثير الخزازي دون استشارة الخليفة وسليمان هذا من شيوخ الدعوة.
- (3) مرواغته في الخروج إلى خراسان.
- (4) تقديمه لاسمه على اسم الخليفة في رسائله وخطبته لأمانة بنت علي وانتسابه إلى سليط بن عبد الله بن العباس.
- (5) تدخله في شؤون أبي العباس.⁶⁰

ويقتل أبي مسلم الخراساني عرف الخليفة المنصور بأنه استهل سلطانه الفعلي الذي لا يشاركه فيه أحد، وعن مقدار الخطر الذي كان يمثله أبو مسلم على المنصور يعبر مسلم بن قتيبة الباهلي (ت حول 150هـ/767م) عندما سأله المنصور يوما عن أبي مسلم فأجاب: "لو

⁵⁸ تاريخ الرسل والملوك ج9 ص164، والبداء والنهاية ج10 ص67.

⁵⁹ البداء والنهاية ج10 ص68.

⁶⁰ تاريخ الرسل والملوك ج9 ص166-168، والكامل في التاريخ ج5 ص109، والبداء والنهاية ج10 ص72-73، وكتاب العبر

وديون المبتدأ والخبر ج3 ص391.

كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا".⁶¹ كما يروى أنه قيل لأبي مسلم أنه يميت دولة ويحيي دولة أخرى هو يرأسها.⁶²

وإذا تدبرنا أسباب قتل أبي مسلم ندرك أنها كلها منبثقة من كونه نظيرا وندا للخليفة المنصور، والمنصور ما أراد أن يكون له ند في الحكم. وكان قتل أبي مسلم درسا لا ينسى ومحفزا لكل من نوى أن يسلك مسلكه. وكان هذا بالضبط مقصد خطبة المنصور التي ألقاها في جمع من الناس بعد قتل أبي مسلم، كما انتهز الفرصة وأوضح أسباب قضائه عليه. وهذا نص الخطبة كما يرويها ابن كثير:

"أيها الناس، لا تنفروا أطيار النعم بترك الشكر فتحل بكم النقم، ولا تسروا غش الأئمة فإن أحدا لا يسر منكم شيئا إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه، وطوال نظره وأنا لن نجعل حقوقكم ما عرفتم حقنا، ولا ننسى الإحسان إليكم ما ذكرتم فضلنا، ومن نازعنا هذا القميص أو طائنا أم رأسه، حتى يستقيم رجالكم، وترتدع عمالكم. وإن هذا الغمر أبا مسلم بايع على أنه من نكث بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه، فنكث وغدر وفجر وكفر، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا، وإن أبا مسلم أحسن مبتدئا وأساء منتهيا، وأخذ من الناس بنا لنفسه أكثر مما أعطانا، ورجح قبيح باطنه على حسن ظاهره، وعلمنا من خبث سريره وفساد نيته ما لو علم اللائم لنا فيه لما لام، ولو اطلع على ما اطلعنا عليه منه لعذرنا في قتله وعنفنا في إمهاله، وما زال ينقض بيعته ويخفر ذمته حتى أحل لنا عقوبته وأباحنا دمه، فحكمنا فيه حكمه في غيره ممن شق العصا، ولم يمنعنا الحق له من إمضاء الحق فيه، وما أحسن ما قال النابغة الذبياني (ت18ق هـ/605م)، الشاعر الجاهلي، للنعمان -يعني لبن المنذر-:

فمن أطاعك فأنفعه بطاعته	كما أطاعك والله على الرشيد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة	تنهي الظلوم ولا تقعد على ضمد" ⁶³

⁶¹ شذرات الذهب ج1 ص180، والبداية والنهاية ج10 ص69.

⁶² شذرات الذهب ج1 ص180.

ولا يبدو أن جميع الاتهامات التي ذكرها المنصور في خطبته ضد أبي مسلم صحيحة بأكملها وخاصة الجزء الذي يتعلق بحكم المنصور عليه بالغدر والفجور والكفر، ولا سيما حينما نضع في الحسبان أن الخلاف بينهما كان سياسيا وشخصيا محضا. وبالنسبة لباطن حياة أبي مسلم وإسلامه فلا نملك مواد مرضية للولوج في هذا المجال، وما هو أشد من ذلك أن ثمة تصريحات من بعض علماء الإسلام الأعيان تثبت عكس ما قدمه المنصور في خطبته بهذا الخصوص.

وقد روى البيهقي (ت470هـ/1077م) عن الحاكم بسنده أن عبد الله بن المبارك (ت181هـ/797م)⁶⁴ سئل عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج؟ فقال: لا أقول أن أبا مسلم كان خيرا من أحد، ولكن كان الحجاج شرا منه، قد أقمه بعضهم على الإسلام ورموه بالزندقة، ولم أر فيما ذكروه عن أبي مسلم ما يدل على ذلك، بل على أنه كان ممن يخاف الله من ذنوبه، وقد ادعى التوبة فيما كان منه من سفك الدماء في إقامة الدولة العباسية والله أعلم بأمره.⁶⁵

وقد روى الخطيب عنه أنه قال: ارتديت الصبر، وآثرت الكفاف، وحالفت الأحزان والأشجان، وشاغت المقادير والأحكام، حتى بلغت غاية همي وأدركت نهاية بغيتي. ثم أنشأ يقول:

قد نلت بالعزم والكتمان ما عجزت	عنه ملوك بني مروان اذ حشدوا
ما زلت اضربهم بالسيف فانتبهوا	من رقدة لم ينمها قبلهم احد
وطفت أسعى عليهم في ديارهم	والقوم في ملكهم في الشام قد رقدوا

⁶³ البداية والنهاية ج10 ص73.

⁶⁴ حافظ، شيخ الإسلام، المجاهد التاجر، صاحب التصانيف والرحلات. (البداية والنهاية ج10 ص184)

⁶⁵ البداية والنهاية ج10 ص74.

ولتلقي الضوء أكثر على طبيعة الخلاف بين أبي مسلم والمنصور، من المستحسن أن أشير إلى محاجة مفصلة بينهما قبيل قتل أبي مسلم، فلما دخل أبو مسلم على المنصور قال له المنصور: ما فعل السيفان اللذان أصبتهما من عبد الله بن علي؟ فقال: هذا أحدهما. فقال: أرنيه، فنأوله السيف فوضعه تحت ركبته ثم قال له: ما حملك على أن تكتب لأبي عبد الله السفاح تنهاه عن الموات، أردت أن تعلمنا الدين؟ قال: انني ظننت أن أخذه لا يحل، فلما جاءني كتاب أمير المؤمنين علمت أنه وأهل بيته معدن العلم. قال: فلم تقدمت علي في طريق الحج؟ قال: كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس، فتقدمت التماس الرفق. قال: فلم لم ترجع إلى حين أتاك خير موت أبي العباس؟ قال: كرهت التضيق على الناس في طريق الحج، وعرفت أنا سنجتمع بالكوفة، وليس عليك مني خلاف. قال: فجارية عبد الله بن علي أردت أن تتخذها لنفسك؟ قال: لا! ولكن خفت أن تضع فحملتها في قبة ووكلت بها من يحفظها. ثم قال له: ألسنت الكاتب إلي تبدأ بنفسك والكاتب إلي تخطب آمنة بنت علي؟ وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس؟ هذا كله ويد المنصور في يده يعركها ويقلبها ويعتذر، ثم قال له: فما حملك على مراغمتي ودخولك إلى خرسان؟ قال: خفت أن يكون دخلك مني شيء فأردت أن أدخل خرسان وأكتب إليك بعذري. قال: فلم قتلت سليمان بن كثير وكان من نقبائنا ودعائنا قبلك؟ قال: أراد خلافي. فقال: ويحك وأنت أردت خلافي وغصيتني قتلي الله إن لم أقتلك.⁶⁷

ويروى أن المنصور لما قتل أبا مسلم وقف عليه وقال: رحمك الله أبا مسلم، بايعتنا فبايعناك، وعاهدتنا وعاهدناك، ووفيت لنا فوفينا لك، وانا بايعناك على أن لا يخرج علينا أحد في هذه الأيام إلا قتلناه، فخرجت علينا فقتلناك، وحكمنا عليك حكمك علي نفسك

⁶⁶ نفس المرجع ج 10 ص 74.

⁶⁷ نفس المرجع ج 10 ص 72-73، وأيضاً الكامل في التاريخ ج 5 ص 109، وكتاب العبر وديوان المتنبأ والخير ج 3 ص 391، وتاريخ الرسل والملوك ج 9 ص 166-168.

لنا. ويقال أن المنصور قال: الحمد لله الذي أَرانا يومك يا عدو الله. قال ابن جرير وقال المنصور عند ذلك:

زعمت أن الدين لا يقتضى فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأسا كنت تسقي بها أمر في الخلق من العلقم⁶⁸

والذي يظهر أن الخلاف بين أبي مسلم والمنصور كان خلافا سياسيا وشخصيا. ومن أجوبة أبي مسلم على اتهامات المنصور نستنبط كأنه أراد أن يقنع المنصور أنه تصرف تصرفا رآه صحيحا وأكثر ملائما في ظروف معينة، غير أننا نكتشف في نغمة الاتهامات المنصور لونا من الانتقام الذي طال عليه الانتظار، وفي نغمة ردود أبي مسلم لونا من التوبة والندامة وفي الوقت نفسه العناد والتشبث والاعتزاز بنفسه، ولكن الخليفة المنصور ما كان مستعدا ليغفر وينسى ولم يفكر في ذلك لحظة واحدة.

وفي وسعنا أن نستخرج عوامل هذه الأزمة الحقيقية من الأحداث السابقة الممتدة إلى تعيين أبي مسلم رئيس الدعوة في خرسان لأجل قابليته الهائلة للقيام بذلك المنصب. وصار طبيعيا أن يزداد نفوذه في خرسان بصفة خاصة بعد قيام الدولة العباسية. وقد خاف الخليفة أبو العباس سلطانه لأنه أصبح زعيما دينيا ومنقذا في نظر بعض الخرسانيين. وكان أبو مسلم فوق كل ذلك يتدخل في شؤون الدولة، إذ كان له ممثل في البلاط اسمه أبو الجهم وكان الخليفة لا يعدو رأيه. يقول الطبري: "وكان أبو الجهم عينا لأبي مسلم على أبي العباس".⁶⁹ ولم يبق لأبي العباس إلا اتباع الحيلة للتخلص من أبي مسلم، فحاول أن يستعمل زياد بن صالح الأموي (ت135هـ/752م) والي بلاد ما وراء النهر للقيام ضده، وأمره إن رأى فرصة أن يثب على أبي مسلم فليقتله. وثار زياد سنة 135هـ/752م على أبي مسلم ولكن أبا مسلم قضى على ثورته بسرعة.⁷⁰

⁶⁸ البداية والنهاية ج 10 ص 73.

⁶⁹ تاريخ الرسل والملوك ج 9 ص 144.

⁷⁰ نفس المرجع ج 9 ص 152.

وأثناء هذه التوترات الكامنة لم يعهد أبو العباس إلى أحد بعد، وقبل أن يعهد إلى المنصور وضعت الجذور الأولى للصراع العنيف بين أبي مسلم والمنصور إذ كان المنصور يقترح لشقيقه أن يتخلص من أبي مسلم ويزيل مشكلة كبرى في طريق تحقيق خططهم السياسية التي تركز على تحقيق السلطة المطلقة داخل أسرة بني العباس وألا يشاركهم في ذلك أحد. وكان يقول له: لست بخليفة ما دام أبو مسلم حيا، فاحتل لقتله قبل أن يفسد عليك أمرك، فلقد رأيته وكأنه لا أحد فوقه، ومثله لا يؤمن غدره ونكثه، فرفض أبو العباس حذرا من الخرسانيين وقد أشرب قلوبهم حبه واتباع أوامره وإيثار طاعته.⁷¹ ثم أشار عليه ثانية بقتله سنة 136هـ/753م عندما جاء للحج فرفض للسبب عينه.⁷²

وبعد تولية المنصور للخلافة وبعد استهلاله تطبيق برامجه السياسية الخاصة قرر أن يفعل بأبي مسلم ما فعل، في حين أن أبا مسلم، وإن كان واعيا بالخطر، لم يغير سلوكه وتصرفاته مما أدى إلى إعدامه. وقتل أبو مسلم وقد كان من أبرز الشخصيات التي ساهمت في إقامة الدولة العباسية. ولعله جدير هنا بالإشارة إلى قول الخليفة المأمون في أبي مسلم عندما ذكر له فقال: "أجل ملوك الأرض ثلاثة، وهم الذين قاموا بثقل الدول: الإسكندر (ت323ق م)⁷³، وأردشير (ت241م)⁷⁴ وأبو مسلم الخرساني".⁷⁵

⁷¹ الأخبار الطوال ص273.

⁷² تاريخ الرسل والملوك ج9 ص154.

⁷³ من أشهر الغزاة الفاتحين. ابن فيليس ملك مقدونيا. (المنحد في اللغة والأعلام ج2 ص45)

⁷⁴ أردشير أو أردشير: مؤسس ورأس وحد الدولة الساسانية في فارس، وهي الطبقة الرابعة من ملوكهم. (المنحد في اللغة والأعلام ج2 ص36)

⁷⁵ وفیات الأعيان ج3 ص147.

نكبة البرامكة

ينتسب البرامكة إلى (برمك) ولم يكن برمك اسم شخص وإنما هو لقب لكبير سدنة معبد النوبهار الذي كان بيتا من بيوت النار الزرادشتية⁷⁶ الهامة. يقول المسعودي: "وكان الموكل بسدنته يدعى البرموك، وهو سمة عامة لكل سدنته، ومن أجل ذلك سميت البرامكة لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت".⁷⁷

وأول من اتصل بالعباسيين من البرامكة خالد بن برمك، وكان من رجال الدعوة العباسية البارزين، وقد تولى ديوان الخراج وديوان الجند في خلافة أبي العباس، ثم أصبح يقوم مقام الوزير بعد مقتل أبي سلمة الخلال، ولما آلت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور تولى خالد بن برمك ديوان الخراج، كما ولاه المنصور ولاية فارس والري⁷⁸ وطبرستان⁷⁹ ودنباوند^{80 81}.

وبعد تولية المهدي للخلافة سنة 158هـ/774م حافظ خالد على نفوذه، وفي سنة 161هـ/777م عهد المهدي إليه بتربية ابنه هارون. ولما قاد هذا الأمير الصائفة سنة 163هـ/779م قلد المهدي خالدا كتابة ابنه ونفقاته وتدبير أمر عسكره فأنجز مهمته بنجاح وحسن أثره لدى الخليفة. ثم توفي خالد سنة 165هـ/781م.⁸²

واعتنى خالد بتربية ابنه يحيى (ت190هـ/805م)، فلا عجب أن عين هذا كاتباً لأمر هارون الذي ولى على المغرب. ولما بويع الهادي أقر يحيى على وظائفه، ويشير الجهشيارى

⁷⁶ الزرادشتية ديانة فارسية قديمة تدعو إلى الابتعاد عن السيئات ونحث على المعروف. وتذهب إلى أن ممة صراعا بين النور الذي يمثل الخير والظلمة التي تمثل الشر، وإلى أن النور منتصر في النهاية. (أنظر للدخل إلى دراسة الأدباء والمناهب ج1 ص33)

⁷⁷ مروج الذهب ج3 ص395.

⁷⁸ مدينة في شمال إيران بضاحية طهران. (معجم البلدان ج3 ص116، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص296)

⁷⁹ مقاطعة في إيران على بحر قزوين. (معجم البلدان ج4 ص13)

⁸⁰ جبل من نواحي الري. (معجم البلدان ج2 ص475)

⁸¹ الوزراء والكتاب ص99.

⁸² نفس المرجع ص150.

(ت331هـ/942م)⁸³ أن الهادي أمر يحيى أن يقوم بأمر هارون أخيه وأقره على كتابته وتدبير الأعمال التي كانت إليه. ولما عزم الهادي على خلع الرشيد سنة 169هـ/785م لعب يحيى دورا هاما في إنقاذ هارون وفي نقل الخلافة إليه.⁸⁴

ولما تولى هارون الرشيد الخلافة سنة 170هـ/786م قلد يحيى الوزارة ومنحه سلطات واسعة لم تمنح لوزير قبله، وقال له: قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى، واستعمل من شئت، واسقط من رأيت، فاني غير ناظر معك في شيء.⁸⁵ وقد استطاع يحيى بمساعدة ولديه الفضل (ت193هـ/808م) وجعفر (ت187هـ/802م) إدارة شؤون الدولة العباسية مدة سبعة عشر عاما من سنة 170هـ/786م إلى 187هـ/802م أفسح لهم الرشيد خلالها المجال في جميع الأمور ومنها أنه ولي الفضل على الجبال⁸⁶ وطبرستان وديبوند وأرمينية⁸⁷، وولاه كذلك على خراسان، وينسب إليه إنشاء جيش خراسان من خمسمائة ألف سباهم العباسية، وبناء مساجد ورباطات كثيرة وحفر قناة ببلخ. كما عهد الرشيد إليه بتربية الأمين.⁸⁸

وبالنسبة لجعفر فقد تقرب من الرشيد تقربا كبيرا وغلب عليه حتى لم يقدم الرشيد عليه أحدا. ويروى أن الرشيد كان يسميه أخا له ويدخله معه في ثوبه.⁸⁹ وهكذا بلغ جعفر منتهى التنفيذ والادلال، فكان يحيى يخاف عاقبة هذه الصلة الشخصية حتى قال للرشيد يوما: يا أمير المؤمنين إني أكره مداخل جعفر ولست آمن أن ترجع العاقبة علي في ذلك منك، فلو أعفيتها واقتصرت على ما يتولاه من جسيم أعمالك لكان أحب إلي وأولى

⁸³ مورخ من الكتاب المترسلين. من أهل الكوفة. (الأعلام ج6 ص256)

⁸⁴ الوزراء والكتاب ص169-171، وتاريخ الرسل والملوك ج10 ص33-35.

⁸⁵ الوزراء والكتاب ص177، وتاريخ الرسل والملوك ج10 ص50.

⁸⁶ بلاد العراق الأعجمي شرقي آذربيجان. (معجم البلدان ج2 ص99)

⁸⁷ منطقة جبلية في غرب آسيا بين الأناضول وأتجاه إيران جنوبي القوقاز. (معجم البلدان ج1 ص160)

⁸⁸ تاريخ الرسل والملوك ج10 ص54 و62-63، والوزراء والكتاب ص193.

⁸⁹ الوزراء والكتاب ص189 و204.

بتفضيلك وآمن عليه عندي.⁹⁰ وكم مرة نصح يحيى ابنه بالإقلاع عن اندفاعه ولكن دون جدوى.⁹¹

إلا أن كل هذا لم يعن أن الخليفة لم يكن يراقبهم، فقد أثبتت الأحداث اللاحقة أنه كان يحصي عليهم أخطاءهم وتجاوزاتهم، وفي النهاية عمد إلى تقريب أعدائهم ومنافسيهم، وبدأ يخطط للتخلص منهم بعد أن أدرك تعاظم نفوذهم وخطرهم على الدولة. وكانت ثم الخليفة الرشيد ضدهم في طبيعتها سياسية ومالية وعنصرية.⁹² فمن الناحية السياسية أظهر البرامكة ميولا سياسية خطيرة على سلامة الدولة العباسية من خلال الأحكام والقرارات التي كانوا يتخذونها دون الرجوع إلى الخليفة في أغلب الأحيان وكثيرا ما يصدرهم أوامرهم التي تمس سياسة الدولة ثم يخبرون الخليفة بعد تنفيذها.⁹³ ونذكر هنا ما حدث ليحيى بن عبد الله العلوي (ت 180هـ/796م)⁹⁴ الذي وضع تحت مراقبة جعفر بأمر الخليفة الرشيد فأطلق سراحه دون الرجوع إليه، فلما عرف الخليفة الرشيد ما وقع استفسر من جعفر فاعترف بما فعل، فلم يظهر له تأثيره بل قال: نعم ما فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي، ثم قال بعد انصراف جعفر: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة ان لم أقتلك.⁹⁵

وبالنسبة للأسباب المالية فإن البرامكة قد سيطروا على خزائن الدولة واستأثروا بمواردها وامتلكوا القصور وأسرفوا في العطايا، في حين أنهم ضيقوا على الخليفة في النفقات. يقول ابن خلدون في ذلك: "إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على

⁹⁰ تاريخ الرسل والملوك ج 10 ص 84.

⁹¹ الوزراء والكتاب ص 224-225.

⁹² أنظر الدكتور زاهية قنوره: الشعبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول ص 244 وما بعدها، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، 1972م.

⁹³ الدكتور رشيد عبد الله الجميلي: دراسات في تاريخ الخلافة العباسية ص 73، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، 1984م.

⁹⁴ من كبار الطالبيين في عهد الهادي والرشيد. (الأعلام ج 8 ص 154)

⁹⁵ تاريخ الرسل والملوك ج 10 ص 80-81.

الدولة واحتحافهم أموال الجباية حتى كان يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه. ثم قال: وتسيرت إلى خزائنهم في سبيل التزلف ولاستمالة أموال الجباية".⁹⁶

ويبين الجهشيارى مدى سيطرة البرامكة في الناحية المالية إذ قال: " وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء يطلقونه له من المال للحوادث سوى نفقاته وما يحتاج إليه هو وعياله، وأنه طلب من جعفر عشرة آلاف درهم فقال لا توجد عندنا دراهم".⁹⁷ كما يروي أن الرشيد طلب مرة من يحيى مليون درهم، وكان قد ورد من فارس ستة ملايين درهم، فلم يجب طلبه ثم أخذ يحيى منها مليوناً ونصفاً وفرقها في عماله.⁹⁸

وثمة روايات وفيرة تشير إلى وارد البرامكة السنوي المائل وعطاياهم وهباتهم مما أدى إلى استنكار الرشيد لتبذيرهم أموال الدولة واستنثارهم بها.⁹⁹

وأما عن ميول البرامكة العنصرية فقد ظهرت في أكثر من مناسبة استرعت انتباه الخليفة ورجال بيته من بني هاشم وقادة العسكر، وقد تمثل ذلك في حرص يحيى البرمكي على تقريب بني سهل وهم بحوس، وإبعاد العناصر العربية عن المناصب الهامة في الدولة وتمكين الفرس من شؤونها المختلفة، ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى الوشاية بقيادة العرب واتهامهم في اخلاصهم للخليفة ليوغروا صدره عليهم كما فعلوا بالنسبة إلى القائد العربي يزيد بن يزيد الشيباني (ت 185هـ/801م)¹⁰⁰ حين عهد الرشيد إليه بقتال الوليد بن طريف الخارجي (ت 179هـ/795م)¹⁰¹ في الجزيرة، فاتهموه بالتواطؤ وتحاشي قتال الوليد لقرابته

⁹⁶ المقدمة ص 15-16.

⁹⁷ الوزراء والكتاب ص 249-250.

⁹⁸ نفس المرجع ص 243.

⁹⁹ أنظر نفس المرجع ص 192 و 242، والإمامة والسياسة ج 2 ص 322.

¹⁰⁰ أمير، من القادة الشجعان. (الأعلام ج 8 ص 188)

¹⁰¹ ثائر من الأبطال. كان رأس الشراة في زمنه. (الأعلام ج 8 ص 120)

إليه، مما أغضب الرشيد وأرسل يهدد يزيد أن لم يسرع في حسم الموقف، فطلب يزيد منازلة الوليد وقتله في مبارزة فردية وأرسل رأسه إلى الخليفة.¹⁰²

وهكذا اجتمعت العوامل المذكورة ودفعت الرشيد إلى نكبة هذه الأسرة، فاستعمل طريق الحكمة في ذلك حيث بدأ بتشذيب سلطتهم وتدرج حتى نكبهم أخيراً سنة 187 هـ/802م. وأمر بالنداء في جميع البرامكة ألا أمان لمن آواهم إلا محمد بن خالد (ت حول 205 هـ/820م) وولده وحشمه وأهله فإنه استثناهم لما ظهر من نصيحة محمد له وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة،¹⁰³ مما يبين أن الجريمة اعتبرت عامة وأنها تتعلق بسلامة الدولة. وقد عوملوا أول الأمر بشيء من اللطف والترفيه، ثم اتهموا بعد سنة بالتآمر مع عبد الملك بن صالح (ت 196 هـ/811م)¹⁰⁴ ضد الخليفة فعوملوا بعد ذلك بشدة. فتوفي يحيى سنة 190 هـ/805م والفضل سنة 193 هـ/808م في السجن.¹⁰⁵ ولما أفضت الخلافة إلى الأمين ثم بعده إلى المأمون تعاملوا مع بقية أعضاء أسرة البرامكة باللطف والإكرام ولكنهما لم يستخدماهم.¹⁰⁶

ويقال إنما قتلهم الرشيد لأنه كان لا يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولا بستان إلا قيل هذا لجعفر بن يحيى، ويقال أيضاً أن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة، وقيل إنما قتلهم بسبب العباسية.¹⁰⁷

ومما ذكرناه سابقاً تتضح لنا شدة استعداد وعزيمة وحزم العباسيين في حراسة مقاصدهم السياسية وعدم توسيع سلطتهم المطلقة إلى غيرهم حتى لو كانوا أحلافهم

¹⁰² أنظر الكامل في التاريخ ج 6 ص 57، أخبار الدول المنقطعة ص 142.

¹⁰³ تاريخ الرسل والملوك ج 10 ص 85.

¹⁰⁴ أمير من العباسيين المشهورين. (الأعلام ج 4 ص 159)

¹⁰⁵ تاريخ الرسل والملوك ج 10 ص 109، والكامل في التاريخ ج 6 ص 71.

¹⁰⁶ الوزراء والكتاب ص 297-298.

¹⁰⁷ البداية والنهاية ج 10 ص 192، وأنظر أيضاً: آداب الملوك ص 120، و غريغوريوس أبو الفرج اللطفي المعروف بابن العربي: تاريخ مختصر الدول ص 224، دار الرائد اللبناني، بيروت، 1983م.

القدامى الذين قدموا للدولة خدمات حسيمة. ولعل الأسلوب الذي استخدمه الخليفة الرشيد في عقاب البرامكة خاطئ أو على الأقل مبالغ فيه، ولعله لم يكن ينبغي لهم أن يضطهدوا كما اضطهدوا ويعذبوا كما تعذبوا، ولعله كان من المفروض أن يسلك الرشيد مسلكاً آخر أخف وأكثر سياسياً في تعاملاته الأخيرة مع البرامكة لأجل تقدير خدماتهم العظيمة للخليفة نفسه ولبرامجه السياسية تقديراً إنسانياً. وكأن الرشيد قد وعى ذلك بعد نكبتهم بقليل فيروى أنه قال: "لعن الله من أغراي بالبرامكة، فما وجدت بعدهم لذة ولا راحة ولا رجاء، وددت والله أني شطرت نصف عمري وملكي وأني تركتهم على حالهم". كما كان يعلن أن قتله إياهم كان يقلقه في الليل والنهار.¹⁰⁸ ولما سئل مرة عن سبب قتله البرامكة قال: "لو أعلم أن قميصي يعلم ذلك لأحرقته".¹⁰⁹

وهذه نهاية البرامكة وهي رمز للتضارب بين سلطة الوزراء وبين سلطة الخلفاء، كما أنها دليل على التباين بين مصلحة الخلفاء العباسيين وبين ميول وزرائهم الفرس، ذلك التباين الذي ظهر جلياً في تصرفات الخلال من قبل، وفي تصرفات بني سهل في خلافة المأمون.¹¹⁰

وهكذا تعامل العباسيون مع شخصيات فارسية بارزة بما يجعلنا نتصور موقفهم من الفرس بصورة عامة. وقد ترتب على هذا الشكل من التعامل ردود الفعل المتعددة والمتنوعة في خراسان، ولعل أكثرها شهرة تلك الفتن والحركات المسلحة التي قام بها زعماء الفرس بهدف التخلص من العباسيين سياسياً وإعادة الجوسية دينياً. وهذه هي المقاومة المسلحة، أما المقاومة الفكرية فتمثل في مجموعة الأفكار التي بثتها حركات الزندقة والشعبوية¹¹¹ في الدولة الإسلامية. وهذا محل اهتمامنا في الفصل الأول من الباب الرابع حيث، بإذن الله

¹⁰⁸ البداية والنهاية ج 10 ص 200.

¹⁰⁹ نفس المرجع ج 10 ص 196.

¹¹⁰ العصر العباسي الأول ص 136.

¹¹¹ الشعبية حركة ثقافية حضارية مناهضة للعرب. وكانت رد فعل على ما استشره العرب من تفوقهم على غيرهم من الأمم. وذلك بعد هزيمة الروم والفرس. وكان قصدها في أول الأمر المساواة، ثم تطورت إلى التحقير من العرب وذمهم. (أنظر لسان العرب ج 10 ص 500، وضحي الإسلام ج 1 ص 27)

تعالى، سنحاول بقدر ما نستطيع أن نخلل هذه الظواهر الاجتماعية والفكرية التي ترتب علي تأصيلها ونشرها انتعاش ونمو علم الكلام عامة والمعتزلة خاصة.

ب) الصراع مع العلويين

اعتبر العباسيون أن من البديهيات أن تكون قيادة المسلمين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من أهل بيته وقد خالفوا في ذلك كلا من الخوارج والأمويين وسائر أطراف أهل السنة والجماعة التي تتشفع بأن الأمر شورى بين المسلمين. وكان يعطي لهم هذا الاعتقاد شيئا زائدا من الحرمة والقدسية إلا أنه في نفس الوقت تشابه ادعاءات العلويين الذين كانوا يرفعون شعارها منذ قيام دولة الأمويين وكانوا يثرون عليهم لأجل ذلك على مدار عهدهم. ولذا نرى العباسيين اختطفوا الكثير من الأسلحة العلوية الدينية التي سوف يستخدمونها في توطيد أصول دولتهم ضد غيرهم، كما استندوا على ذات الأسلحة التي طوروها بتوالي الأزمنة في مجال إخراج العلويين من الحق في إرث الرسول صلى الله عليه وسلم.

وإذا لم يكن صعبا على العباسيين بعد أن وصلوا إلى الخلافة أن يثبتوا شرعية حكمهم ضد منافسيهم الأمويين فقد كان في غاية الصعوبة والتعقيد أن يبعدوا العلويين ويؤكدوا أفضليتهم عليهم بحق الخلافة، لا لأجل اشتراك هؤلاء معهم في القرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم فقط، ولكن أيضا لسابقة هؤلاء في القتال ضد الأمويين لإثبات حقهم بالخلافة وغياب العباسيين عن هذا القتال.

لقد سبق أن فصلنا القول عن الدعوة العباسية حيث رأينا أنها استهلت بوصية أبي هاشم لمحمد بن علي التي عنت تنازله عن حق العلويين في المطالبة بالخلافة. فمنذ هذه الهلة وحتى قيام دولة العباسيين اعتمد العباسيون على أصول يغلب عليها الغموض والتعمية، ومن أهمها الدعوة إلى الرضا من آل محمد التي كانت تغطي كل أطراف أهل

بيت الرسول صلى الله عليه وسلم. ولعل الدافع إلى اللجوء إلى تسميتها بهذا الاسم إنما قصد به أن يعتقد العلويون ومن كان على شاكلتهم بأن تلك الدعوة إنما هي باسمهم، ومن أجلهم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، هو كسب مزيد من الأعوان والاتباع الذين يدينون بالولاء للعلويين سواء من العرب أو من غيرهم، وذلك للانضمام إلى تلك الدعوة. ومن ناحية ثالثة، هو صرف أنظار الأمويين عن العباسيين والاعتقاد بأن من قام بهذا الأمر إنما هم العلويون، وأما ما يحدث بعد إسقاط الدولة الأموية فأمر تقررهِ الظروف، ويكون للحيلة والحذر والذكاء الدور الأكبر في تحقيق النصر والاستحواذ على السلطة.¹¹²

وهذا ما حدث بالفعل وما أثبتته الأحداث اللاحقة بعد تمكن العباسيين من إقامة دولتهم، ونرى الخليفة الأول أبا العباس لم ينازع العلويين، لأن أمور الدولة لم تستقر بعد ولأنه لم يطل به العهد سوى أربع سنوات، وبالتالي إعلان الأمر ومحاولة إبعاد العلويين عن العرش في تلك الظروف لا يكون أبدا ناجحا ومقنعا ومرضيا. وتكشف لنا الخطبة الأولى لأبي العباس يوم خلافته وخطبة عمه أبي داود بن علي أن العباسيين لم يفرقوا بينهم وبين العلويين بل أقروا احترامهم لهم واعترفهم بهم. وقد ترتب على ذلك أن كثيرا من الناس تصوروا أن الذي تحقق إنما هو الحكم الهاشمي، ونضيف هنا إلحاق أبي العباس البارز على تألف قلوب العلويين وصلة الرحم فيهم ولم يكن يشك إلا في محمد ذي النفس الزكية (ت145هـ/762م)¹¹³ وأخيه إبراهيم (ت145هـ/762م)¹¹⁴، ولكنه كان يضبط أمرهما

¹¹² العلاقات بين العلويين والعباسيين ص59.

¹¹³ هو أحد العلماء الأشراف من الطالبيين. كان يقال له صريح قريش لأن أمه وجداته لم يكن فيهن أم ولد. وسمي بالمهدي. خرج على الدولة العباسية سنة 145هـ/762م بالمدنية أثناء خلافة المنصور، وتبعه أعيان المدينة ولم يتخلف عنه إلا نفر يسير. ثم غلب على المدينة وعزل من كان فيها من عمال المنصور ورتب عليها عماله، وكسر أبواب السجون وأخرج من كان فيها واستولى على المدينة استيلاء تاما. وراسله وكتبه المنصور، وفي النهاية توجه إليه عيسى بن موسى، أحد الأمراء الولاة القادة في الدولة العباسية يومئذ، في عسكر كثيف فالتقوا في موضع قريب من المدينة، فكانت الغلبة لعسكر المنصور. وقتل محمد ذو النفس الزكية وحمل رأسه إلى المنصور، وذلك في سنة 145هـ/762م. (أنظر الفهرري في الآداب السلطانية ص167-168، وجمال الدين أحمد بن علي المعروف بابن عتبة: عمدة الطالب ص104، المطبعة الحيدرية في النجف، الطبعة الثانية، 1961م، ومقاتل الطالبيين ص206 وما بعده، تاريخ خليفة بن عياط ص276، وصلاح الدين خليل الصفدي: الوافي بالوفيات ج3 ص297، فرانزشتايز، فسياد، 1974م)

¹¹⁴ أحد الأمراء الأشراف الشجعان. خرج على الدولة العباسية أثناء حكم الخليفة المنصور في البصرة سنة 145هـ/762م، وهي نفس السنة التي خرج فيها أخوه محمد في المدينة. فأرسل إليه المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى بعد رجوعه عن قتل عمه ذي النفس

ويراقب تصرفاتهما عن طريق أبيهما. وقد فعل ذلك أكثر من مرة حتى أخذ عليه العهد ألا يرى منهما شيئا يستنكفه.¹¹⁵

ولما جاء إلى الحكم أبو جعفر المنصور بعد انتصاره على منافسيه بدأ العلويون يفهمون أنه لا أمل لهم في الاشتراك في الخلافة مع استئثار أبناء عمهم بها¹¹⁶، وخاصة عندما فرق المنصور بين بني هاشم حتى قيل عباسي وطالبي.¹¹⁷ ولعل ذلك كان سببا رئيسيا لتحرك العلويين في عصره ولصراع عنيف بينهم.

وفي الحقيقة كان المنصور خائفا من طموح بني الحسن، فقد بلغهم أنهم كانوا يشيعون بأن هاشم، ومن بينهم المنصور، اجتمعوا عند اضطراب أحوال الدولة الأموية وبايعوا لحمد ذي النفس الذكية.¹¹⁸ كما أن عبد الله بن الحسن أشاع عن ابنه محمد أنه المهدي الذي بشر به.¹¹⁹ فأراد المنصور أن يتحقق من كل ذلك فدعا بني هاشم وسأهم عن محمد في خلوة فكلهم قالوا: "يا أمير المؤمنين إنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل هذا اليوم وهو يخافك على نفسه ولا يريد خلافا ولا يحب لك معصية إلا الحسن بن زيد (ت 168هـ/784م)¹²⁰ فإنه أخبره وقال: والله ما آمن وثوبه عليك والله لا ينام عنك".¹²¹

الزكية. وقتل إبراهيم في المعركة، وذلك في سنة 145هـ/762م. (أنظر الفخري في الآداب السلطانية ص167، مقاتل الطالبين ص272 وما بعدها، عمدة الطالب ص109)

¹¹⁵ أنظر مقاتل الطالبين ص177.

¹¹⁶ See: Many Authors: The Encyclopedia Americana - International Edition, Grolier Incorporated, 1991, USA: volume 18 page 265.

¹¹⁷ أحمد بن يعقوب بن جعفر اليعقوبي: مشاكلة الناس لزمانهم ص22-23، تحقيق وليم ملورد، بيروت، 1962م، وتاريخ الخلفاء ص261، وحلال الدين السيوطي: الوسائل إلى معرفة الأرائل ص139، تحقيق عبد القادر أحمد عبد القادر، دار ابن تيمية، الكويت، الطبعة الأولى، 1990م.

¹¹⁸ قارن بين روايتين وأردتين في كل من الفخري في الآداب السلطانية ص119 ومقاتل الطالبين ص143.

¹¹⁹ الفخري في الآداب السلطانية ص121.

¹²⁰ أمير المدينة، والد السيدة نفيسة. (معجم الأعلام ص196)

¹²¹ مقاتل الطالبين ص145-146.

وفي تعامل المنصور مع محمد ذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم آجلا يتبين لنا عنفه، ودهائه، وذكاءه، وقدراته السياسية، وفوق كل ذلك رغبته الشديدة في السيطرة المطلقة على شؤون الدولة.

وأول ما فعله المنصور هو أنه استشار علماء وأمراء ووزراءه في أمر ابني عبد الله بن حسن وبعث الجواسيس والقصاص في البلاد ليطلعوا على أمرهما.¹²² كما ألح على أبيهما عبد الله أثناء حجه سنة 144هـ/761م في طلب ولديه فغضب عبد الله من ذلك وقال: "والله لو كانا تحت قدمي ما دلتك عليهما". فغضب المنصور وأمر بسجنه¹²³ وأمر ببيع رقيقه وأمواله فلبث في السجن ثلاث سنوات. وأشاروا على المنصور بحبس بني الحسن فحبسهم. وجد المنصور في طلب محمد وإبراهيم لدرجة أنه عزل نائبا على المدينة وولى عليها غيره وحرضه على إمساكهما والفحص عنهما، وبذل في ذلك أموالا جزيلة.¹²⁴

وأخيرا ثار محمد ذي النفس الزكية في المدينة في مستهل رجب سنة 145هـ/762م،¹²⁵ ثم ثار إبراهيم بن عبد الله في البصرة في أول شهر رمضان¹²⁶ فاجتمع معهما خلق كثير. وما يهمنا هنا هو المراسلات بين المنصور ومحمد التي تعبر عن محاجة قوية بين فئة العباسيين والعلويين في حق كل منهما في الخلافة. ونلاحظ بوادر هذه المحاجة وشدة نغمها عندما قبض على عبد الله بن حسن وأهله فأركبوا في محامل ضيقة وعليهم القيود والأغلال فاجتاز بهم المنصور وهو في هودجه¹²⁷، فناداه عبد الله بن حسن: "والله يا أبا جعفر ما صنعنا هكذا بأسرائكم يوم بدر"، فأخسأ ذلك المنصور وثقل عليه ونفر منهم.¹²⁸

¹²² البداية والنهاية ج 10 ص 84.

¹²³ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج 3 ص 394.

¹²⁴ البداية والنهاية ج 10 ص 83-84، وأيضا تاريخ الرسل والملوك ج 9 ص 181، 188-189.

¹²⁵ تاريخ يعقوب ج 2 ص 376.

¹²⁶ نفس المراجع ج 2 ص 377.

¹²⁷ هودج جمع هودج: يحمل له قبة كانت تركب فيه النساء. (المنجد في اللغة والأعلام ج 1 ص 876).

¹²⁸ البداية والنهاية ج 10 ص 84.

وقبل أن يقرر المنصور قتال محمد بن عبد الله كتب له كتابا ينذره فيه ويحاول أن يغيره بالمال ليعدل عن المعصية ويعود إلى الطاعة. وفي الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله بن عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله: إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا... الآية" ¹²⁹. ثم قال: فلك عهد الله وميثاقه وذمة وذمة رسوله، إن أنت رجعت إلى الطاعة لأؤمننك ومن اتبعك، ولأعطينك ألف ألف درهم، ولأدعنك تقيم في أحب البلاد إليك، ولأقضين لك جميع حوائجك... ¹³⁰ فرد عليه محمد:

"من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله بن حسن: بسم الله الرحمن الرحيم طسم، تلك آيات الكتاب المبين، نزلوا عليك من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون، إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين، ونريد أن نغن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين" ¹³¹. ثم قال: وإني أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت علي، فأنا أحق بهذا الأمر منكم، وأنتم إنما وصلتم إليه بنا، فإن عليا كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟ ونحن أشرف أهل الأرض نسبا، فرسول الله خير الناس وهو جدنا، وجدتنا حديجة وهي أفضل زوجاته، وفاطمة ابنته أمنا وهي أكرم بناته، وإن هاشما ولد عليا مرتين، وإن حسنا ولده عبد المطلب مرتين، وهو وأخوه سيदा شباب أهل الجنة، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد أبي مرتين، وإن أوسط بني هاشم نسبا، (وأصرحهم أبا، لم تعرق في العجم، ولم تنازع في أمهات الأولاد) فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة، وأخفهم عذابا في النار، فأنا أولى بالأمر منك، وأولى بالعهد وأولى به منك، فإنك تعطي العهد ثم تنكث ولا تفي، كما فعلت بابن هبيرة فإنك أعطيت العهد ثم غدرت به، ولا أشد عذابا من إمام غادر، وكذلك فعلت بعمك عبد الله بن علي، وأبي

¹²⁹ سورة المائدة 33.

¹³⁰ البداية والنهاية ج 10 ص 87، تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 566، الكامل في التاريخ ج 5 ص 151-152، العقد الفريد ج 5

ص 307، طبعة دار الفكر.

¹³¹ سورة القصص 1-5.

مسلم الخرساني. ولو أعلم أنك تصدق لأجبتك لما دعوتني إليه، ولكن الرفاء بالعهد من مثلك لمثلي بعيد والسلام".¹³²

فرد عليه المنصور: "أما بعد فقد قرأت كتابك فإذا حل فخرك وإدلالك قرابة النساء لتضل به الجفأة والغرغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء، ولا كالعصبية والأولياء، وقد أنزل الله {وأُنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} ¹³³ وكان له حينئذ أربعة أعمام، فاستجاب له اثنان أحدهما جدنا، وكفر اثنان أحدهما أبوك -أي جده أبو طالب- فقطع الله ولايتهما منه، ولم يجعل بينهما إلا ولا ذمة، وقد أنزل الله في عدم إسلام أبي طالب {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء} ¹³⁴ وقد فخرت به وأنه أخف أهل النار عذابا، وليس في الشر خيار، ولا ينبغي لمومن أن يفخر بأهل النار وفخرت بأن عليا ولده هاشم مرتين، وأن حسنا ولده عبد المطلب مرتين، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولده عبد الله مرة واحدة، وقولك أنك لم تلدك أمهات أولاد، فهذا إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مارية، وهو خير منك، وعلي بن الحسن من أم ولد وهو خير منك، وكذلك ابنه محمد بن علي، وابنه جعفر بن محمد، جداهما أمهات أولاد وهما خير منك، وأما قولك بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال تعالى: {ما كان محمد أبا أحد من رجالكم} ¹³⁵ وقد جاءت السنة التي لا خلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخاله لا يورثون، ولم يكن لفاطمة ميراث من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنص الحديث، وقد مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوك حاضر فلم يأمره بالصلاة بالناس، بل أمر غيره. ولما توفي لم يعدل الناس بأبي بكر وعمر أحدا، ثم قدموا عليه عثمان في الشورى والخلافة، ثم لما قتل عثمان اتهمه بعضهم به، وقاتله طلحة والزبير على ذلك، وامتنع سعد من مبايعته ثم بعد ذلك معاوية، ثم طلبها أبوك وقاتل عليه الرجال، ثم اتفق على التحكيم فلم يف به، ثم صارت إلى الحسن فباعها بخرق ودرهم، وأقام بالحجاز

¹³² البداية والنهاية ج 10 ص 87-88، تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 567، الكامل في التاريخ ج 5 ص 152-153، العقد الفرید ج 5 ص 307-309.

¹³³ سورة الشعراء 214.

¹³⁴ سورة القصص 56.

¹³⁵ سورة الأحزاب 40.

يأخذ مالا من غير حله، وسلم الأمر إلى غير أهله، وترك شيعته في أيدي بني أمية ومعاضة. فان كانت لكم فقد تركتموها وبعتموها بثمانها. ثم خرج عمك حسين علي بن مرجانة وكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه، ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل، وحرقوكم بالنار، وحملوا نساءكم على الإبل كالسبايا إلى الشام، حتى خرجنا عليهم نحن فأخذنا بثأركم، وأدر كنا بدمائكم، وأورثناكم أرضهم وديارهم، وذكرنا فضل سلفكم، فجعلت ذلك حجة علينا، وظننت أنا إنما ذكرنا فضله على أمثاله على حمزة والعباس وجعفر، وليس الأمر كما زعمت، فإن هؤلاء مضوا ولم يدخلوا في الفتن، وسلموا من الدنيا فلم تنقصهم شيئا، فاستوفوا ثوابهم كاملا، وابتلى بذلك أبوك، وكانت بنو أمية تلغنه كما تلغن الكفرة في الصلوات المكتوبات، فأحيينا ذكره وذكرنا فضله وعنفناهم بما نالوا منه، وقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية بسقاية الحجاج الأعظم، وخدمة زمزم، وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا به. ولما قحط الناس زمن عمر استسقى بأبينا العباس، وتوسل به إلى ربه وأبوك حاضر، وقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا العباس، فالسقاية سقايته، والوراثة وراثته، والخلافة في ولده، فلم يبق شرف في الجاهلية والإسلام إلا والعباس وارثه ومورثه...¹³⁶

وما من شك في أن هذه المراسلات لم تتردد بين الطرفين ولم تكتب لإقناع الخصم وإنما كتبت ونشرت في الناس بغرض دعائي يثبت به كل من الطرفين دعواه وبشكل شرعي ديني في الخلافة على أن أهم ما أورده المنصور إنما هو الحجة الفقهية التي تكشف أن العباس (العم) هو دون علي (ابن العم) الوارث الوحيد للرسول وللخلافة في المسلمين عند وفاة صاحب الرسالة.¹³⁷

¹³⁶ البداية والنهاية ج 10 ص 88-89، تاريخ الرسل والملوك ج 7 568-571، الكامل في التاريخ ج 5 153-155، العقد الفريد ج 5 ص 309-311.

¹³⁷ انظر دولة بني العباس ج 2 ص 12-13.

وقد استمر الجدل النظري الفقهي بين العباسيين والعلويين في تلك الفترة على هذا
الغرار حتى جاءت خلافة المهدي الذي حاول أن يثبت أن الخلافة للعباس بن عبد المطلب
وبالتالي غير محور وطبيعة الجدل بين الطرفين كما أوجد خطأ جديدا في الدفاع العباسي
عن حقهم في الخلافة وقال لهم: "إن الإمامة كانت للعباس عم النبي فإنه كان أولى الناس
به وأقربهم إليه ثم من بعده عبد الله بن العباس ثم بعده علي بن عبد الله ثم من بعده محمد
بن علي ثم من بعده إبراهيم بن محمد ثم أبو العباس ثم أبو جعفر ثم المهدي ثم مدها في ولد
المهدي" 138، 139 .

138 أنظر أخبار الدولة العباسية ص 165.

139 نلاحظ أن الخليفة المهدي فضل الجدل السلمي والمسألة والتراحم على القتال مع العلويين، وإن كان يقصد به دحض براهينهم في
ادعائهم للخلافة، وهذه الرواية كانت بلا شك دلالة على سياسته هذه. وسياسة المهدي العامة تجاه العلويين توصف غالباً باللطيف
والحنان والشفقة والرحمة. ولذلك تنفس العلويون بعد موت المنصور وانتقال الحكم إليه ورحبوا بسياسته للمسألة ترحيباً كبيراً. ومن
الحسنات التي فعلها المهدي مع العلويين إخراجهم من السجن وإعطاء الجواز والأرزاق المتوفرة لهم. وقد أعاد إليهم قطائعهم التي
صادرها أبوه في أطوار حياته المتأخرة. وقد ساعد استيثاره ليعقوب بن داود (ت 187هـ/803م) على زيادة التفاهم معهم لما عرف
من ميوله الزيدية. فإن المهدي كان يقول: لو وجدت رجلاً من الزيدية له معرفة بآل الحسن وبعيسى بن زيد، وله فقه فأحتله إلى علي
طريق الفقه، فيدخل بيني وبين آل حسن وعيسى بن زيد! فدل على يعقوب بن داود فأوبى به فأدخل عليه... ولم يزل أمره يرتفع عند
المهدي ويعلو حتى استوزره وفوض إليه أمر الخلافة، فأرسل إلى الزيدية فأتى بهم من كل أوب، وللاهم من أمور الخلافة في المشرق
والمغرب كل حليل وعمل نفيس، والدنيا كلها في يديه. وقال عن ذلك بشار بن برد:

بن أمية هربا طال نومكم
ضاعت خلافتكم يا قوم فاطلبوا
خليفة الله بين الدف والعود.

ولكن هذا العهد الرعي لم يدم طويلاً لأن السعائيات أقبلت تنقض المهدي أن المشرق والمغرب في يد يعقوب وأصحابه، وقد كانتهم
وإنما يكفيه أن يكتب إليهم فيثربوا في يوم واحد فيأخذوا الدنيا لإسحاق بن الفضل. ونكب يعقوب وعزل أصحابه عن الولايات
ولكنه لم ينكب الزيدية معه.

وإذا كانت سياسة المهدي مع العلويين على الرحمة والوفاق بصورة عامة فإن ابنه الهادي قلب هذه السياسة فجدد في طلبهم وأعادهم
خوفاً شديداً وقطع ما كان المهدي يبري لهم من الأرزاق والأعطيات، وكتب إلى الأفاق في طلبهم وحملهم. فلما اشتد خوف العلويين
وكثر من يطلبهم اجتماعهم حول الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت 169هـ/785م) فبايعوه في
خرجوا على الحكم العباسي سنة 169هـ/785م بمكة، فالتقوا بالجنش العباسي والمغمروا وكان من المقتولين الحسين بن علي.
وقد سلك مسلك الهادي هذا الخليفة هارون الرشيد. فلما جاء الأمين لم يعرف عنه أنه اتخذ موقفاً سلبياً من العلويين طيلة بقائه في
الخلافة. ولعل من الأسباب الرئيسية لذلك تشاغله بالحرب التي حرت بينه وبين أخيه المأمون. كما لم يقيم العلويون ثورات ضد
العباسيين في عهده. وقال عن ذلك صاحب "مقاتل الطالبين": وكانت سيرة عمه (الأمين) في أمر آل أبي طالب خلاف من تقدم
لتشاغله بما كان فيه من اللهو والإدمان له، ثم الحرب التي كانت بينه وبين المأمون حتى قتل، فلم يتحدث على أحد منهم في أيامه حدث
بوجه ولا سب. (مقاتل الطالبين ص 420)

ولما أفضت الخلافة إلى المأمون بعد مقتل الأمين بدأت نكبت صفحة جديدة عن العلاقات بين العلويين والعباسيين. وسنفضل القول
عن ذلك في فصلنا الأخير "عنة خلق القرآن: عواملها ونتائجها". (أنظر تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 155-156، و 192-193،

إن هذه النقطة بالذات قد أثارت جدلا بين العباسيين والعلويين سيستمر قرونا وسيظل من أهم نقاط الاختلاف الفقهي بينهم، غير الجدل والاختلاف عم وامتد بين الناس وانعكس في كتب الفقه وعلم الكلام والأدب¹⁴⁰ .¹⁴¹

وهذا الخليفة المأمون قال يوما لعلي بن موسى الرضى (ت203هـ/818م)¹⁴²: "تم تدعون هذا الأمر؟ قال: بقرابة علي من النبي صلى الله عليه وسلم وبقرابة فاطمة رضي الله عنهما فقال المأمون: إن لم يكن هاهنا شيء إلا القرابة ففي خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم... من أهل بيته من هو أقرب إليه من علي ومن هو في القرابة مثله وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين وليس لعلي في هذا الأمر حق وهما حيان. وإذا كان الأمر على ذلك فإن عليا قد ابتزهما جميعا وهما حيان صحيحان

وتاريخ اليعقوبي ج2 ص394 و404، والكامل في التاريخ ج5 ص229، والمتنظم في تاريخ الأمم والملوك ج8 ص227، ومقاتل الطالبيين ص342-370)

¹⁴⁰ أنظر دولة بني العباس ج2 ص14، ضحى الإسلام ج2 ص14، والدكتور حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج2 ص145-150، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السابعة، 1964م.

إلا أن الأمر في كثير من الأحيان تعدى حد الجدل السلمي وصار ثورات دموية ضد حكام الدولة العباسية. ونذكر على سبيل المثال بجانب خروج محمد ذي النفس الذكية وأخيه إبراهيم سنة 145هـ/762م ثورة الحسين بن علي سنة 169هـ/785م في عهد الهادي، وثورة ادريس بن عبد الله سنة 172هـ/788م، وثورة يحيى بن عبد الله سنة 176هـ/792م في عهد هارون الرشيد، والأحداث بين الرشيد وموسى الكاظم، هو من أبرز العلويين في وقته وأكثرهم علما وعبادة، ما بين سنة 179هـ/795م و183هـ/799م، ثم ثورة ابن طباطبا سنة 199هـ/814م، وثورة محمد الدياج سنة 200هـ/815م، وثورة عبد الرحمن بن أحمد العلوي سنة 207هـ/822م في عهد المأمون. (وفي كتاب أبي الفرج الأصفهاني "مقاتل الطالبيين" شطر كبير عمن قتل من العلويين في العهد العباسي الأول، أنظر ص166-463)

¹⁴¹ ستكلم عن هذا في ثانيا البحث إن شاء الله تعالى. أنظر مثلا أثر الاختلافات بين العلويين والعباسي وأثر الجدل بينهم على قضية المهدي المنتظر في هذا الفصل، ثم أنظر كيف انعكس ذلك على الوضع في الحديث والتاريخ في فصلنا "تطور الحياة الفكرية المنفصل عن تطور الحياة السياسية" وفي فصلنا "أثر العباسيين على تطور الحياة العلمية"، وأنظر أيضا الأثر على تطور الأدب والشعر في فصلنا "أثر العباسيين على تطور الحياة العلمية".

¹⁴² ثامن الأئمة الاثني عشر عند الإمامية. ومن أحلاء السادة أهل البيت وفضلائهم. كان قبل وفاته ولي العهد بعد الخليفة المأمون. (البداية والنهاية ج10 ص261)

واستولى علي ما لا يجب له. فما أجاب علي بن موسى ...¹⁴³ ويروى أيضا أن المأمون قد عقد المجلس مع أربعين فقيها وملاؤه لأجل الدفاع المنطقي عن فضل علي.¹⁴⁴

وقد قابل خلفاء العصر العباسي الأول الخاخ العلويين على مناهضتهم بالاضطهاد القاسي الرهيب وبالتسامح النسبي أحيانا ولكن ذلك الاضطهاد كانت له نتيجتان هامتان: ازدياد التطرف الشيعي والغلو من ناحية وازدياد التكنم والباطنية والحركات السرية من ناحية أخرى. وقد دفع العباسيون خاصة والمسلمون عامة ثمن هذه السياسة العباسية، لأن كثرة البطش دفعت العلويين في نوع من الدفاع الذاتي إلى المغالاة في المذهب وإلى أن تصبح التقية إحدى الأسس فيه وأن يتبع في انتشاره أسلوب الدعوة في السر وأن يتخذ طريقه إلى النفوس سرياً.¹⁴⁵

ج) امتزاج السياسة بالدين

يتميز العهد العباسي الأول بأن علاقة السياسة بالدين كانت علاقة وثيقة ويقول ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي: "إن هذه الدولة ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك، فكان أختيار الناس وصلحائهم يطيعونها تدينا والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة".¹⁴⁶

وأثناء ثورة العباسيين ضد الأمويين رفعت شعارات تدل على ذلك ومنها "العمل بالكتاب والسنة" و "الدعوة للرضا من آل محمد"، وكان هذا يعني أن الدين كان الدستور والمصدر للعمل السياسي والإداري وأن شعوب الدولة الإسلامية متساوية في حقوقها

¹⁴³ العقد الفريد ج 5 ص 326-327.

¹⁴⁴ نفس المرجع ج 5 ص 317-328.

¹⁴⁵ انظر دولة بني العباس ج 2 ص 18.

¹⁴⁶ الفخري في الآداب السلطانية ص 101.

وواجباً، في حين أن العباسيين في رأيهم أجدر الناس بأمر الخلافة وأكثرهم أهلاً لتحقيق ذلك لأجل قرابتهم من الرسول صلى الله عليه وسلم وحقهم في إرثه كأساس للشرعية في الحكم.

لقد أدرك العباسيون أن الناس ينددون بالأمويين ويخرجون عليهم لأجل الظلم والجور الذي اقترفوه والفساد الذي انتشر في الأرض فاعتصموا بوعودهم لإحياء السنة النبوية وإعادة العدل والمساواة بين الناس وفي نفس الوقت ارتكزوا على إبراز ما ترتب من الجور والإساءات على سياسة الأمويين غير العادلة ليكسبوا التأييد والإعانة السياسية من الناس. ونرى ذلك في خطبة أبي العباس الافتتاحية بالكوفة حيث يركز على نقد الأمويين وتصرفاتهم السياسية وتعقبه الوعود بأن الدولة الجديدة تمثل بداية فترة جديدة متألقة سيتحقق فيها الخير العام والإصلاح الشامل، ونلاحظ ذات الرسائل في خطبة عمه داود بن علي الذي خطب بعده.¹⁴⁷

وفي ضوء هذا القول يمكننا بسهولة ملاحظة المظاهر الدينية الكثيفة على يد خلفاء العصر العباسي الأول المتداولة حول نشر الإسلام، والجهاد، والحج، واتخاذ الألقاب، والتصرفات في غاية التقى والتدين. ومنها:

- خطب أبو العباس واقفاً وكان بنو أمية يخطبون قعوداً فناداه الناس يا ابن عم رسول الله أحييت سنة رسول الله.¹⁴⁸

- قيل للمنصور هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تنله، قال: بقيت حصلة، أن أقعد في مصطبة وحولي أصحاب الحديث... الدنسة ثيابهم، المشقة أرجلهم الطويلة شعورهم، برد الآفاق ونقله الحديث.¹⁴⁹

¹⁴⁷ أنظر تاريخ الرسل والملوك ج7 ص425-428، والكمال في التاريخ ج5 ص65-68.

¹⁴⁸ مشاكل الناس لزمامهم ص22.

¹⁴⁹ تاريخ الخلفاء ص266-267.

-أمر المهدي بإخراج المقاصير من مساجد الجماعات وبتقصير المنابر وتصويرها على قدر منبر رسول الله.¹⁵⁰

-أمر الرشيد بكتابة الصلاة على النبي في أعلى كتبه فكان أول من صنع ذلك كما أمر المأمون بتتويجها في الأعلى بسم الله الرحمن الرحيم "فكان أول من أثبتها على عنوانات كتب الخلفاء..."¹⁵¹

-كان الرشيد أول من كتب على الأعلام السود بالبياض: لا إله إلا الله محمد رسول الله.¹⁵²

-يروى أن الرشيد كان يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة، وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته، وكان إذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابقة والكسوة الباهرة، وكان يقتفي آثار المنصور، ويطلب العمل بها إلا في بذل المال، فإنه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال، ثم المأمون من بعده. وكان لا يضيع عنده إحسان محسن، ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه... وكان يميل إلى أهل الأدب والفقه ويكره المرء في الدين، ويقول: هو شيء لا نتيجة له، وبالحرى ألا يكون فيه ثواب...¹⁵³

ولتوضيح أكثر هذه القاعدة التي اتخذها خلفاء العهد العباسي الأول سنذكر وصايا الخليفة المنصور لابنه المهدي حيث يتبين لنا بعد اهتماماته بكل من السياسة والدين في

¹⁵⁰ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 136.

¹⁵¹ أنظر مشكلة الناس لزمامهم ص 26 و ص 31، وشذرات الذهب ج 1 ص 294.

¹⁵² مشكلة الناس لزمامهم ص 25.

¹⁵³ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 347، وأنظر أيضا أبو عبد الله القلعي: تهذيب الرئاسة وترتيب السياسية ص 336، تحقيق إبراهيم

يوسف مصطفى عحر، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، 1985م، ومحمد بن محمد مخلوق: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية (التتمة)، ص 112، دار الفكر، دون سنة الطبعة.

الدولة، وفي الوقت نفسه تبين لنا إشارة غير مباشرة إلى مدى صحة العلاقات بينهما، هذا لأننا نلاحظ انفصاما واضحا بين السياسة والدين في الوصايا نفسها، ونرى بعضها سياسية بحتة وبعضها الآخر دينية خالصة ولا نستطيع أن نلمح تناسقا مرضيا ومطالبيا به بينهما. وكأن المنصور يحاول ولكن يفشل في إحداث نقاط الاتصال القوية بين الدين والسياسة التي اتخذها هو، ويوصي ابنه بها. وكان لذلك بلا ريب انعكاس كبير على الواقع السياسي والعهد الذي ندرسه.

فأوصاه في إحدى وصاياه بالمال والسلطان ولا وجود لأحدهما دون الآخر. وقال له: "جمعت لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلي، وإن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور، فاحتفظ بها، فإنك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا".¹⁵⁴ ثم أوصاه بالإحسان مع أحلافه وحذره من أعدائه في المال والسلطان وأمره أن يبعدهم ويتشدد في أمرهم، وإن دعت الظروف أن يقتلهم.¹⁵⁵

كما أوصاه في وصية أخرى بتقوى الله فيما عهد إليه من أمور المسلمين وأن يحفظ محمدا صلى الله عليه وسلم فيحفظ الله أموره، وأمره أن يضعف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فسادا. وأوصاه بالجهاد وقمع المارقين والخارجين عليه.¹⁵⁶

ولكن حينما نتدبر كل هذا من كل الجوانب، ونفحص بواعث ذلك النوع من المسلك والظروف التي وقع فيها، ونحاول أن ندرك مقاصده وغاياته، نرى أن وعود العباسيين ومظاهر سياساتهم الدينية ظلت وهما ولم تتحقق كما كان يتصور ويتوقع. فلما استخدموا الدين مطية لاجتذاب الناس إليهم ولتوطيد مركزيتهم السياسية ولسد الفجوة ما بين الاتهامات ضد الحكم الأموي وواقع الحكم الجديد. وفي ضوء هذا المبدأ أعلنوا

¹⁵⁴ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 103، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج 3 ص 433-436.

¹⁵⁵ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 103، 106-107.

¹⁵⁶ نفس المرجع ج 8 ص 105-106.

بتمثيل "الجماعة الإسلامية في الحكم، وسعوا إلى بلورة عقيدة رسمية سنوية ومذهب رسمي حنفي للدولة، وإيجاد منصب قاضي القضاة¹⁵⁷ وإلى غير ذلك. ومن ثم كانت المظاهر الدينية تمثل غطاء وستارا لسياسة لم تخالف جوهرها سياسة الأمويين. ولأجل ذلك استمر العسف والجور كما استمرت الثورات ضدهم.

وفي سنة 133هـ/750م، عدة أشهر فقط بعد تولية أبي العباس الخلافة خرج شريك بن شيخ المهري (ت133هـ/750م) ببخارى وقال: ما على هذا بايعنا آل محمد، على سفك الدماء وقتل الأنفس؟ واتبعه على ذلك نحو ثلاثين ألفا، فبعث إليه أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعي فقاتله فقتله.¹⁵⁸

وفي رواية الطبري رفع شريك شعار: "ما على هذا اتبعنا آل محمد، على أن نسفك الدماء ونعمل بغير الحق".¹⁵⁹

ونشير أيضا إلى خروج يوسف بن إبراهيم اليرم (ت160هـ/776م) سنة 160هـ/776م إبان خلافة المهدي، وهو رجل من موالي ثقيف ببخارى، الذي كان يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.¹⁶⁰

وبعد خروج محمد بن عبد الله بالمدينة خطب الناس مرة وأتهم المنصور خاصة وسياسة العباسيين عامة. وإن كانت لهذه التصريحات خلفية سياسية نضعها في الاعتبار لأنها بالفعل تصور لنا لدرجة معينة حقيقة التزام العباسيين بسياساتهم الدينية. فقال محمد: "أما بعد أيها الناس، فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبي جعفر ما لم يخف عليكم، من بنائه القبة الخضراء التي بناها معاندا لله في ملكه، وتصغيرا للكعبة الحرام، وإنما أخذ الله فرعون

¹⁵⁷ الخليفة هارون الرشيد هو الذي أوجد منصب قاضي القضاة وكان أول من تولى ذلك المنصب أبو يوسف. (أنظر شذرات الذهب

ج1 ص298، مروج الذهب ج3 ص351)

¹⁵⁸ البداية والنهاية ج10 ص58.

¹⁵⁹ تاريخ الرسل والملوك ج7 ص459، وفارن بالروايات الواردة في تاريخ البعقوبي ج2 ص354، والكامل في التاريخ ج5 ص90.

¹⁶⁰ تاريخ البعقوبي ج2 ص397.

حين قال {أنا ربكم الأعلى} ¹⁶¹ وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين، اللهم إني قد أحلوا حرامك، وحرّموا حلالك، وآمنوا من أخفت، وأخافوا من أمنت. اللهم فأحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحدا. أيها الناس إني والله ما خرجت من بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة، ولكني اخترتكم لنفسي، والله ما جئت هذه وفي الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لي فيه البيعة". ¹⁶²

ونذكر في هذا الصدد خروج سهل بن سلامة (ت 202هـ/817م) سنة 201هـ/816م في عهد الخليفة المأمون. ومن أسباب خروجه عدم التزام حكام الدولة العباسية بشعارات قد رفعوها لإسقاط الأمويين ووعدوا بتحقيقها بعد قيام دولتهم. ومن شعارات سهل بن سلامة التي رفعها ضد الدولة العباسية "العمل بالكتاب والسنة" و "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" و "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق". ¹⁶³ وتبلور لنا جدية أمره لما حابه إسحاق بن موسى الهادي (ت حول 215هـ/830م) ولي العهد بعد عمه إبراهيم بن المهدي، وقال له: "حرضت علينا الناس وعبت أمرنا، فقال له: إنما كانت دعوتي عباسية، وإنما كنت أدعو إلى العمل بالكتاب والسنة، وأنا على ما كنت عليه أدعوكم إليه الساعة. فلم يقبلوا ذلك منه. ثم قالوا له: اخرج إلى الناس، فقل لهم: إن ما كنت أدعوكم إليه باطل. فخرج إلى الناس وقال: قد علمتم ما كنت أدعوكم إليه من العمل بالكتاب والسنة، وأنا أدعوكم إليه الساعة". ¹⁶⁴

وقد ترتب على هذا النوع من السياسة أن شطرا واسعا من العلماء المشهورين لم يطمئنوا إلى الدولة العباسية تماما مما أدى إلى ابتعادهم عنها ورفض التعامل مع أصحابها و أحيانا مساندتهم وتأييدهم لبعض الحركات المعارضة لها. فهذا هو الإمام مالك بن أنس، صاحب المذهب المشهور وإمام أهل المدينة، يفتي لصالح ثورة محمد بن عبد الله عندما

¹⁶¹ سورة النازعات 24.

¹⁶² تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 558.

¹⁶³ نفس المرجع ج 8 ص 562-563.

¹⁶⁴ نفس المرجع ج 8 ص 563.

استفتي في الخروج معه وقيل له: "إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر، فقال مالك: إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين، فأسرع الناس إلى مبايعته".¹⁶⁵

وكذلك الإمام أبو حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي وإمام أهل العراق يحث الناس على المشاركة في ثورة إبراهيم بن عبد الله في البصرة ضد الخليفة المنصور. وقال صاحب "شذرات الذهب" في ذلك: "وكان خرج مع إبراهيم كثير من القراء والعلماء منهم هشيم وأبو خلد الأحمر وعيسى بن يونس وعباد بن العوام ويزيد بن هارون وأبو حنيفة وكان يجاهر في أمره ويحث الناس على الخروج معه كما كان مالك يحث الناس على الخروج مع أخيه محمد، وقال أبو اسحق الفزاري لأبي حنيفة ما اتقيت الله حيث حثت أخني على الخروج مع إبراهيم فقتل، فقال انه كما لو قتل يوم بدر، وقال شعبة والله لبي عندي بدر الصغرى".¹⁶⁶

وما هو طريف ابان هذه التوترات السياسية وخاصة فيما يتعلق بأبي حنيفة وهو انه كان يساعد ماليا وفكريا الثورة العباسية في إسقاط الدولة الأموية¹⁶⁷ متأثرا بمقدار ظلم

¹⁶⁵ نفس المرجع ج 7 ص 560، وقارن مع رواية ابن خلدون في تاريخه ج 3 ص 406، ومقاتل الطالبين ص 284، والمنظفم في تاريخ الأمم والملوك ج 8 ص 106.

وقال ابن العربي من المالكية بمحصوص مواقف الإمام مالك من الحكام: "قال علماؤنا في رواية سحنون: إنما يقاتل مع الإمام العدل سواء كان الأول أو الخارج عليه، فإن لم يكن عدلين فامسك عنهما إلا أن تراد بنفسك أو مالك أو ظلم للمسلمين فادفع ذلك... قال: وقد روى ابن القاسم عن مالك: إذا خرج على الإمام العدل خارج وجب النفع عنه، مثل عمر بن عبد العزيز، فاما غيره ينتقم الله من ظالم لم يمتله، ثم ينتقم من كليهما، قال الله تعالى: {فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فحاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا} (سورة الإسراء 5) قال مالك: إذا بويع للإمام فقام عليه إخوانه قوتلوا إذا كان الأول عدلا، فلا بيع لهم إذا كان بويع لهم على الخوف". (أنظر محمد بن عبد الله بن محمد ابن العربي الإشبيلي المالكي: أحكام القرآن ج 4 ص 1721، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة، 1392هـ).

¹⁶⁶ شذرات الذهب ج 1 ص 214، وأنظر أيضا عمدة الطالب ص 109.

¹⁶⁷ وكان كذلك شأنه مع بعض الثورات العلوية ضد الدولة الأموية. ويروى أنه لما خرج زيد بن علي زين العابدين على هشام بن عبد الملك سنة 121هـ/738م قال أبو حنيفة: "ضاهي خروجه خروج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم بدر". فقيل له: لم تخلف عنه؟ قال: حسبي عنه ودائع الناس. ويروى أنه قال في الاعتذار عن عدم الخروج معه: "لو علمت أن الناس لا يخذلونه كما لا يخذلون أباه لجاهدت معه لأنه إمام حق، ولكن أعينه بمالي". فبعث إليه بعشرة آلاف درهم، وقال للرسول: "أسط عنري له". (أنظر محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره - آرائه وفقهه ص 33، دار الفكر العربي، 1947م، تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 160 وما بعدها)

أصحابها من جانب وبشعارات وسياسات العباسيين الموعودة بها من جانب آخر.¹⁶⁸
ولكن بعد ما حصص الحق وأبان العباسيون رغبتهم الحقيقية انصرف أبو حنيفة وكثير
من العلماء والناس عنهم.¹⁶⁹

وثمة رواية رائعة عن الحوار بين رجل من العباد والخليفة المنصور حيث فتح الرجل قلبه
وأعلم الخليفة بالأمر من أصولها بعد أن آمنه ووعد له أنه لن يعاقبه فقال: "يا أمير
المؤمنين إن الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر في الأرض من الفساد والبغي
لأنت. فقال: فكيف ذلك ويحك! يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضي، والحلو
والحامض عندي؟ قال: هل دخل أحد من الطمع ما دخلك؟ إن الله استرعاك أمر عباده
وأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجابا، من
الخص والآجر، وأبوابا من الحديد، وحراسا معهم السلاح، ثم سجنتم نفسك عنهم فيها
وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع، وأمرت ألا
يدخل عليك أحد من الرجال إلا فلان وفلان، نفرا سميتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم، ولا
الملهوف، ولا الجائع العاري، ولا الضعيف الفقير إليك، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق،
فلما رأيك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا
يحجبوا دونك، تجبى الأموال وتجمعها. قالوا: هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه. فاتمروا ألا
يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم

¹⁶⁸ يروي أن أبا العباس السفاح لما نزل الكوفة وجهه إلى العلماء فجمعهم ثم قال: "إن هذا الأمر قد أفضى إلى أهل بيت نبيكم
وجاءكم الله بالفضل وإقامة الحق، وأنتم يا معشر العلماء أحق من أعان عليه ولكم الحياء والكرامة والضيافة من مال الله ما أحببت.
فيايما بيعة تكون لكم عند إمامكم حجة لكم وعليكم وأمانا في معادكم. لا تلقوا الله بلا إمام فتكونوا ممن لا حجة له". فظهر القوم
إلى أبي حنيفة فقال: "إن أحببت أن أتكم عني وعكم فأمسكوا". قالوا: "قد أحببنا ذلك". فقال: "الحمد لله الذي بلغ الحق من قربه
من نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وأماط عنا حور الظلمة، وبسط ألسنة بالحق. وقد بايعناك على أمر الله والوفاء لك بعهدي إلى قيام
الساعة فلا أعلى الله هذا الأمر من قربه من نبيه". فأجاب أبو العباس بجواب جميل وقال: "مطلبك من خطب عن العلماء، لقد أحسنوا
اختيارك وأحسن في البلاغ". (أبو عبد الله حسين بن علي الصيمري: أخبار أبي حنيفة وأصحابه ص14-15، مطبعة المعارف
الشرقية، الهند، 1974م)

¹⁶⁹ أنظر أبو حنيفة: حياته وعصره - آرائه وفقهه ص161-163، والدكتور مصطفى شعكة: أبو حنيفة النعمان ص111-124، دار
الكتب الإسلامية، القاهرة، 1982م، وضحي الإسلام ج2 ص178، وأئمة الفقه التسعة ص64.
ولأجل هذا أدرج ابن حزم كل من الإمام مالك وأبي حنيفة في ضمن الذين ذهبوا إلى القول بعدم طاعة أئمة الجور والظلم والخروج
عليهم إن سمحت الظروف. (أنظر الفصل في الملل والأهواء والنحل ج5 ص23)

إلا خونوه عندك ونفوه، حتى تسقط منزلته، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم، أعظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال، ليقووا بها على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم، فامتألت بلاد الله بالطمع ظلما وبغيا وفسادا، وصار هؤلاء القوم شركاؤك في سلطانتك وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينك وبينه، فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك وحدك قد نھيت عن ذلك، وأوقفت للناس رجلا ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك المتظلم فبلغ بطانتك خبره، سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به، ويشكو ويستغيث، وهو يدفعه، فإذا أجهد وأخرج ثم ظهرت صرخ بين يديك، فيضرب ضربا مبرحا يكون نكالا لغيره، وأنت تنظر فما تنكر! فما بقاء الإسلام على هذا؟ وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتها مرة وقد أصيب ملكهم بسمعه، فبكى بكاء شديدا، فحشه جلسائه على الصبر فقال: أما إني لست أبكي للبلية النازلة، ولكني أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته، ثم قال: أما إذا قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس أن لا يلبس ثوبا أحمر إلا متظلم. ثم كان يركب الفيل طرفي النهار وينظر هل يرى مظلوما، فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله، بلغت رأفته بالمشركين هذا المبلغ، وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك! فإن كنت إنما تجمع المال لولدك، فقد أراك الله عبدا في الطفل يسقط من بطن أمه ما له على الأرض مال، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله يلفظ بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه. ولست الذي تعطي بل الله تعالى يعطي من يشاء ما يشاء. فإن قلت إنما تجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها. فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة ما تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه يا أمير المؤمنين. هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل؟ فقال المنصور: لا. فقال: فكيف تصنع بالملك الذي خولك ملك الدنيا، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود في العذاب الأليم. قد رأى ما عقد عليه قلبك، وعملته جوارحك ونظر إليه بصرك، واجترحت يداك، ومشت إليه رجلاك. هل يغني عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب؟ فبكى المنصور، ثم قال: ليتني لم أخلق! ويحك كيف أحتال لنفسي؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن للناس أعلاما يفزعون إليهم في دينهم، ويرضون بهم في دنياهم، فاجعلهم

بطانتك يرشدوك، وشاورهم في أمرك يسددونك. قال: قد بعثت إليهم فهربوا مني، قال: خافوك أن تحملهم على طريقتك، ولكن افتح بابك، وسهل حجابك، وانصر المظلوم، واقمع الظالم، وخذ الفيء والصدقات على حلها، واقسمها بالحق والعدل على أهلها، وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة".¹⁷⁰

ولا شك أن هذه الشكاوى تعبر عن الأوضاع السياسية الحقيقية في الدولة العباسية وطبيعة تصرفات حكامها تجاه الرعية ابتداء من المركزية السياسية المطلقة التي كانوا يتشفعون بها حتى العلاقات بينهم وبين أعلام الناس من أصحاب العلم والورع. إن هذا الحوار يعد ميزانا له قيمة كبيرة نوره في سياق حديثنا عن سياسة العباسيين الدينية، لأن الحوار قد جرى بين الخليفة صاحب السلطة العليا في الدولة وبين الرجل العادي الذي بكل وضوح تميز بليمان عميق وعلم غريز وخبرة دولية واسعة، كما يبدو أنه لم يكن يميل إلى أحد من الأحزاب السياسية في ذلك العصر. وكان الخليفة المنصور قد أدرك هذه الخصائص عنده عندما رآه وسمع دعاءه في الطواف، فأرسل إليه واستمع إلى قوله. ويظهر أيضا أن المنصور قد أعجب به وبملاحظاته لأنه كان يبحث عنه بعد ذلك فلم يجده.¹⁷¹

وفي هذا الصدد يروى أن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذؤيب (ت 159هـ/775م)¹⁷² حضر يوما مجلس أمير المؤمنين المنصور، وكان والي المدينة الحسن بن زيد موجودا فأتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئا من أمر الحسن بن زيد، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين سل عنهم ابن أبي ذؤيب. فسأله فقال: أشهد أنهم أهل تحطم في أعراض الناس كثير والأذى لهم. فقال أبو جعفر: قد سمعتم، فقال الغفاريون: سل عن الحسن بن زيد. فقال:

¹⁷⁰ أنظر هذه الرواية في كل من العقد الفريد ج3 ص94-96، والمنظوم في تاريخ الأمم والملوك ج8 ص49-51، وتهذيب الرئاسة وترتيب السياسة ص318-320، وإحياء علوم الدين ج2 ص351-352، وأبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار ج1 ص707-709، تحقيق الدكتور محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 1994م.

¹⁷¹ العقد الفريد ج3 ص96، إحياء علوم الدين ج2 ص352.

¹⁷² تابعي، من رواة الحديث. من أهل المدينة. يذكر في إحياء علوم الدين (ج2 ص348) أنه ابن أبي ذؤيب وكذلك في الإمامة والسياسة (ج2 ص272). وفي البداية والنهاية هو ابن أبي ذؤيب (ج10 ص134). ولكن في معظم المصادر يورد أنه ابن أبي ذؤيب. (أنظر تاريخ الإسلام ج9 ص601، كتاب الغن ص407، تاريخ بغداد ج2 ص298، شذرات الذهب ج1 ص245، للمنظم في تاريخ الأمم والملوك ج8 ص233)

يا ابن أبي ذؤيب ما تقول في الحسن بن زيد؟ فقال: أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه... وسأله المنصور ما يقول عنه فقال: أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله، وأشهد أن الظلم ببابك فاش.¹⁷³

على كل حال نقول أن سياسة خلفاء العهد العباسي الأول كانت ممزوجة بالدين بحيث كان الدين وسيلة لترويج وتوطيد السياسة التي لم تختلف في صميمها عن السياسة الأموية. كما نعترف أن هذا الجنس من السياسة قد يسر لهم تجاوز كثير من الاضطرابات السياسية، وكان سببا من الأسباب في العمر الطويل الذي حظيت به الدولة العباسية.

(د) استيعاب بعض النظريات المغالية المنحرفة في تلك الفترة

وظف العباسيون بعض النظريات الإسلامية المتطرفة لأجل توطيد برامجهم السياسية وتبرير دعواهم في الارث النبوي كأساس للشرعية في الحكم. فمنها تقديس منصب الخلافة ونسبة اختيار صاحبه إلى الاختيار الإلهي وإرادته، والاعتصام بالتبشير بالمهدي المنتظر.¹⁷⁴

¹⁷³ إحياء علوم الدين ج2 ص348.

¹⁷⁴ إن القرآن الكريم لا يذكر شيئا عن المهدي. وممة أحاديث عديدة عنه لا يرونها الشيعان البحاري ومسلم. ومن تلك الأحاديث: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: "يكون في أمي المهدي. إن قصر فسع، وإلا فتنع. فتعني فيه أمي نعمة لم يعموا مثلها قط. توفي أكلها، ولا تدعز منهم شيئا. والمال يومئذ قدوس. فيقوم الرجل فيقول يا مهدي، أعطني. فيقول: عذ". (محمد ناصر الدين الألباني: صحيح سنن ابن ماجة ج2 ص389، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الثالثة، 1988م)

عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: "المهدي منا، أهل البيت، يصلحه الله في ليلة". (صحيح سنن ابن ماجة ج2 ص389)
عن أم سلمة قالت: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: "المهدي من ولد فاطمة". (صحيح سنن ابن ماجة ج2 ص389)
عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: "لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتي يخلصها عدلا كما ملئت جورا". (أبو داود سليمان السجستاني: سنن أبي داود ج4 ص107، تحقيق محمد عبي الدين عبد الحميد، للكتبة العصرية، بيروت، دون سنة الطبعة)
عن أم سلمة قالت: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: "المهدي من عترتي من ولد فاطمة". (سنن أبي داود ج4 ص107)

وجهود العباسيين في هذا المجال ليست شيئا جديدا، فإن الأمويين كما رأينا والعلويين تمسكوا بهذه الأفكار وحاولوا تطبيقها لصالح رغبتهم ومآربهم السياسية، وما فعله العباسيون هو إكمال هذه الأفكار وجعلها من المسلمات السياسية المرتبطة بعرشهم، كما كانوا يبذلون غاية جهدهم في إدخال تلك الأقاويل في أذهان الناس لا كأراء للحكام العباسيين ولكن كركيزة وقاعدة يبنى عليها نظام قائم.

عن أبي سعيد الخضري قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: "المهدي مني أحلى أجبهة، أفنى الأنف، يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما، يملك سبع سنين". (سنن أبي داود ج4 ص107، محمد فؤاد عبد الباقي: مفتاح كنوز السنة ص484، مطبعة معارف، لاهور، 1977م)

وفكرة المهدي فكرة إسلامية مبكرة، ولكنها تأثرت بمؤثرات سلبية خارجية وداخلية بمرور الزمن. فلما كانت معروفة ومتداولة أثناء توترات سياسية بين علي ومعاوية. ففي وقعة صفين سنة 37هـ/657م كان شعبة علي بن أبي طالب يسمونه المهدي، وكان أنصار معاوية بن أبي سفيان يسمون عثمان بن عفان المهدي. (الدعوة العباسية مبادئ وأساليب ص138-139) ومنذ ذلك الوقت، أي سقوط الخلافة الراشدة، نشأت التنازعات والتعارضات الشرسة على الحكم بين المجموعات الكثيرة. وكانت تلك الأوضاع دائما مصطنحة باستعمال الفتن والحروب الأهلية التي ألقت كثيرا من الناس إلى التشاؤم والخزن واليأس. ومن أجل ذلك أخذوا يتطلعون إلى المنقذ الذي سيخلص كثيرا من الناس من البلاء وينجيهم من الشقاء المقيم. وعلى هذا كانت فكرة المهدي تنتشر وكان الناس يعملون عنه ويتوقعون خروجه ويتشوقون إلى رؤيته. ولكن أصحاب التنازعات والخلافات السياسية كانوا أيضا يلمحون إلى استغلال هذه الفكرة ليقوموا ويحتوا موقفهم السياسي في الفتن والحروب. فرى كلا من العلويين والأمويين ثم بعد ذلك العباسيين يتسابقون إلى اتخاذ فكرة المهدي وسيلة لتبليد تأييد وتعاطف الناس. فسمي من العلويين علي بن أبي طالب المهدي وكذلك ابنه الحسين بن علي بن أبي طالب، وابن الخنيفة، والمختار الثقفي، وزيد بن علي بن الحسين بن علي، ومحمد بن عبد الله ذو النفس الذكية. (أنظر مقالات الإسلاميين ج1 ص85، الفرق بين الفرق ص143، تاريخ الرسل والملوك ج5 ص589، أنساب الأشراف ج5 ص218، الأغاني ج9 ص16، مقاتل الطالبين ص233)

ونازع الأمويون الفرق والجماعات المناهضة لهم في لقب المهدي قبل سقوط دولتهم، وسعوا إلى أن يغلبوا عليه ويشتهروا به، وحدوا في تنحية خصومهم عنه وتجريدهم منه. فسمي مروان بن الحكم، والوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك وغيرهم المهدي. وذلك واضح في مدح شعراء الدولة الأموية إياهم مثل جرير والفرزدق. (أنظر همام بن غالب الفرزدق: ديوان الفرزدق ج1 ص80، 264، 311، ج2 ص90، 99، 311، دار صادر، بيروت، 1966م، جرير بن عطية الحنظلي: ديوان جرير ج1 ص225، 416، ج2 ص771، تحقيق الدكتور نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، مصر، 1969م، الطبقات الكبرى ج5 ص333)

إذن فلما جاء العباسيون وغلبوا على الخلافة واصلوا هذا النضال مع منازعتهم في الحكم. ولا شك أن كل هذا عقد نظرية المهدي وأثار الشك حول صدقها وصدق الأحاديث الواردة عنها لدى كثير من الناس، وأقنع بعض الناس ألا يقبلوها ويعتبروها والأحاديث عنها موضوعة. (لزيد من التفاصيل أنظر للمقدمة ص311-330، حلال الدين السيوطي: الرسائل العشر ص213 وما بعدها، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1989م، ويوسف بن يحيى بن علي المقدسي الشافعي السلمي: عقد الدرر في أخبار المنتظر ص113 وما بعدها، تحقيق مهيب بن صالح بن عبد الرحمن البوريني، مكتبة المنار، الطبعة الأولى، 1985م، ضحى الإسلام ج3 ص236-248، مجلة إسلامية للمعرفة، ص25 وما بعدها، السنة الأولى، العدد الرابع، أبريل 1996، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)

وأما تقديس منصب الخلافة ففرى بدايات إشاعته بين الحكام العباسيين في خطبة أبي العباس الافتتاحية وخطبة عمه داود بن علي، وفي خطبة أبي العباس جاء قوله: "الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرامة وشرفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا... وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله صلى الله عليه وسلم... ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع...¹⁷⁵ وفي خطبة داود بن علي: "...وأصار إلينا ميراثنا من نبينا... وعاد السهم إلى مترعه ورجع الحق إلى نصابه...¹⁷⁶

فمنذ تلك اللحظات رفعت شعارات من قبل الحكام العباسيين مثل "سلطان الله في الأرض"، وأهم "أنصار الحق"، وأن الأمر الذي اختاره الله تعالى لهم "لن يخرج عنهم إلى يوم القيامة" وإلى غير ذلك،¹⁷⁷ في حين أنهم اتهموا كل من لم يرض بسلاطنتهم ولا سيما الأمويين¹⁷⁸ والعلويين ورفعوا في هذا الصدد شعارات مثل "القوم الظالمون"، واعتبروا الخروج عليهم الخروج على الإسلام والجماعة ومحاربتهم محاربة الله تعالى ورسوله ونشر الفساد في الأرض، وبالتالي جزاؤهم خزي في الدنيا والآخرة.¹⁷⁹

يقول المنصور: "أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أئوسكم بتوقيفه وتسديده، وأنا خازنه على فيته، أعمل بمشيئته، وأقسمه بإرادته، وأعطيته بإذنه، قد جعلني الله عليه قفلاً، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم فيئكم وأرزاقكم فتحني، وإذا شاء أن يقفلني أقفلني، فارغبوا إلى الله أيها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه، إذ يقول تبارك وتعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً}¹⁸⁰ أن يوفقني للصواب ويسددي للرشاد،

¹⁷⁵ تاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 425.

¹⁷⁶ نفس المرجع ج 7 ص 426.

¹⁷⁷ نفس المرجع ج 7 ص 425-428، وج 8 ص 89، والكامل في التاريخ ج 5 ص 65-68.

¹⁷⁸ أنظر تهذيب الرياسة وترتيب السياسة ص 324، وتاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 426-428.

¹⁷⁹ الكامل في التاريخ ج 5 ص 65-68، والعقد الفريد ج 4 ص 161-164، وتاريخ الرسل والملوك ج 7 ص 425-428، وج 8 ص 567.

¹⁸⁰ سورة المائدة 3.

ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم، ويفتحني لأعطياتكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم،
إنه سميع قريب".¹⁸¹ وكأن المنصور يريد أن يقول أن الخليفة آله إلهية بواسطته ينفذ الله
تعالى إرادته في الناس.

ولما أوصى المنصور ابنه المهدي قال له: "فالسلطان يا بني حبل الله المتين، وعروته
الوثقى، ودين الله القيم".¹⁸²

ولما أراد المنصور إعدام أبي مسلم الخرساني نفى مساهماته العظيمة أثناء الثورة العباسية
وبعد قيام الدولة العباسية، وأعزى كل ما وقع إلى إرادة الله تعالى وحبته تجاه العباسيين.
ولو قامت مقام أبي مسلم "أمة سوداء" لفعلت ما فعله. وقال المنصور له: "يا ابن الخبيثة،
والله لو قامت مقامك أمة سوداء لأغنت غناك، إنما تأتي لك الأمور في ذلك بما أحب الله،
من إظهار دعوتنا أهل البيت، ورد حقنا إلينا. ولو كان ذلك بحولك وحيلتك وقوتك ما
قطعت فتيلًا...".¹⁸³

وكان العباسيون يستخدمون هذه الركييزة كلما رأوا فرصة لاستخدامها وكلما
احتاجوا إليها. ونرى الخليفة هارون الرشيد مثلاً يهتم كل الاهتمام بولاية العهد لابنيه
الأمين والمأمون ويلجأ إلى انتهاز كل فرصة تتاح له لإقناع الناس وإرضائهم بعزيمته، وفي
نفس الوقت ليهيئ الظروف لاحتضانها لدى الناس احتضاناً تاماً. فاستعان بالعلماء والقواد
واختار الكعبة لإعلان ولاية العهد، ثم لم يكتف بذلك بل استند على "تقديس تلك
العزيمه" وأورد في نسخة كتابه الذي علقه على الكعبة: "أما بعد فإن الله ولي أمير المؤمنين
وولي ما ولاه والحافظ لما استرعاه وأكرمه به من خلافته وسلطانه... أراد الله فلم يكن له
مرد، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته، ولا صرف له عن محبته
ومشيئته، وما سبق في علمه منه. وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة عليه وعليهما في ذلك

¹⁸¹ قارن بين الروايات الواردة في تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 89-90، والعقد الفريد ج 4 ص 161-162.

¹⁸² تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 105.

¹⁸³ الأخبار الطوال ص 381.

وعلى الأمة كافة، لا عاقب لأمر الله ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه... فعزم الله لأمر المؤمنين على الشخوص بهما إلى بيت الله... وما يلتبس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء دينه من الضرب بين الأمة، والسعي بالفساد في الأرض، والدعاء إلى البدع والضلالة، نظرا من أمير المؤمنين لدينه ورعيته وأمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ومناصحة الله وجميع المسلمين، وذبا عن سلطان الله الذي قدره، وتوحد فيه للذي حمله إياه، والاجتهاد في كل ما فيه قربة إلى الله، وما ينال به رضوانه، والوسيلة عنده...¹⁸⁴

وقد أدرك الشعراء المتملقون في كل ذلك فرصة التقرب من الخلفاء بمدائحهم في القصائد والتركيز على الأوصاف والشعارات التي رفعها الخلفاء أنفسهم. فقال بشار بن برد في المهدي:

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فاطلبوا خليفة الله بين الدف والعود¹⁸⁵

وقال عبد الله بن أيوب التميمي، أحد شعراء الدولة العباسية المشهورين، (ت209هـ/824م): أنشدت إلى محمد الأمين أول ما ولي الخلافة:

لا بد من سكرة على طرب لعل روحا بذاك من كرب
فعاطينها صهباء صافية تضحك في لولو على ذهب
خليفة الله أنت منتخب بخير أم من هاشم وأب

قال: فأمر لي بمائة ألف درهم.¹⁸⁶

¹⁸⁴ أنظر تاريخ الرسل والملوك ج8 ص283-285، والبداية والنهاية ج10 ص194.

¹⁸⁵ تاريخ الرسل والملوك ج8 ص156.

¹⁸⁶ حسين بن محمد واداران: تاريخ العباسيين ص209، تحقيق الدكتور المنجي الكعبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م.

ويروى عن صالح بن الرشيد، قال: دخلت على المأمون، ومعني بيتان للحسين بن الضحاك (ت250هـ/864م)، الشاعر المشهور من ندماء الخلفاء، فقلت: يا أمير المؤمنين، أحب أن تسمع مني بيتين، قال:

حمدنا الله شكرا إذ حبانا	بنصرك يا أمير المؤمنين
فأنت خليفة الرحمن حقا	جمعت سماحة وجمعت دينا

فاستحسنهما المأمون وقال: لمن هذان البيتان يا صالح؟ قلت: لعبدك يا أمير المؤمنين الحسين بن الضحاك، قال: قد أحسن، قلت: وله يا أمير المؤمنين ما هو أجود من هذا، قال: وما هو؟ فأنتدته:

أيخل فرد الحسن فرد صفاته	علي، وقد أفردته بهوى فرد!
رأى الله عبد الله خير عباده	فملكه والله أعلم بالعبد ¹⁸⁷

ويقول ابن أبي السمط فيه أيضا:

أضحى إمام الهدى المأمون مشغلا بالدين والناس بالدنيا مشاغلا¹⁸⁸

وبالنسبة للتبشير بالمهدي المنتظر فإن خلفاء العهد العباسي الأول قد اعتصموا به واعين من المنافع التي يتمكنون من كسبها. وتدل بعض الروايات أن أصحاب الدعوة العباسية كانوا يستغلون عقيدة المهدي في المرحلة السرية من الدعوة.¹⁸⁹ وكانوا في أول الأمر

¹⁸⁷ تاريخ الرسل والملوك ج8 ص662.

¹⁸⁸ نفس المرجع ج8 ص663.

¹⁸⁹ أنظر أنساب الأشراف ج3 ص82، 84، 85، 86 و 122، وتاريخ يعقوب ج2 ص322 و342، وأخبار الدولة العباسية ص238.

يشيعون أن المهدي من آل البيت ثم أخذوا يلمحون إلى أنه من بني العباس دون غيرهم. وبعد قيام دولتهم بدأ العباسيون يلقبون أبا العباس المهدي. قال المسعودي: "قد كان لقب أولاً بالمهدي، ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة 132هـ/749م بالكوفة".¹⁹⁰ وروى ابن كثير أن أبا مسلم قال لأبي جعفر المنصور بعد أن خالفه ونابذه: "إن أخاك السفاح ظهر في صورة مهدي".¹⁹¹ وقال شبل بن طهران مولى بني هاشم:

أنت مهدي هاشم ورضاها كم أناس رجوك بعد إياس¹⁹²

ويلقب أبو العباس بألقاب أخرى كالمرتضى، والقائم، والسفاح.¹⁹³ وذكر الخطيب البغدادي أنه كان يقال له: السفاح، والمرضى والقائم.¹⁹⁴

ويبدو أن الاختلاف في لقب أبي العباس يرجع إلى الخليفة المنصور الذي نزع لقب المهدي من أبي العباس وأشاع لقبه السفاح فقط، وسمى ابنه محمد المهدي. وما لا ريب فيه أن الظروف السياسية هي التي أجبرته على ذلك. فقد توفي أبو العباس، وبوفاته زال المهدي من بني العباس، ثم ثار محمد بن عبد الله بالمدينة وادعى أنه المهدي، فسمى أبو جعفر نفسه المنصور. وخرج الحاكم النيسابوري (ت378هـ/988م) في مستدركه¹⁹⁵ من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفاً عليه أنه قال: "منا أهل البيت أربعة: منا السفاح، ومنا المنذر، ومنا المنصور، ومنا المهدي".¹⁹⁶ وقد شرح ابن عباس لمجاهد معنى كل لقب من

¹⁹⁰ أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي: التنبيه والإشراف ص308، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1981م، وأيضاً تاريخ يعقوبي ج2 ص359.

¹⁹¹ البداية والنهاية ج10 ص69.

¹⁹² تاريخ يعقوبي ج2 ص359.

¹⁹³ أنظر البدء والتاريخ ج6 ص88، وإسماعيل بن محمد السيد الحميري: ديوان السيد الحميري 396، جمعه وحققه وشرحه شاهر هادي شكر، مكتبة دار الحياة، بيروت، دون سنة الطبعة، وتاريخ الرسل والملوك ج7 ص426، ومحمد بن عبد الله الشبلي الدمشقي: محاسن الوسائل في معرفة الأوائل ص294، تحقيق الدكتور محمد التونجي، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، 1992م.

¹⁹⁴ تاريخ بغداد ج10 ص46.

¹⁹⁵ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري: المستدرک علی الصحیحین ج4 ص556، دار المعرفة، بيروت، دون سنة الطبعة.

¹⁹⁶ راجع هذا الحديث وغيره عن المهدي المنتظر مع تعليقات المؤلفين حول متونها ورواها في مقدمة ابن خلدون ص311-330، وعلي بن حسان المتقي الهندلي: البرهان في علامات مهدي آخر الزمان ج1 ص234 وما بعدها، تحقيق حاسم بن محمد بن مهلهل

هذه الألقاب: "أما المنصور فإنه يعطى النصر على مسيرة شهرين، والمنصور يهرب منه عدوه على مسيرة شهر".¹⁹⁷ والمراد أن المنصور يمهد للمهدي.

وسمى المنصور ابنه المهدي ونفى أن يكون محمد بن عبد الله هو المهدي، ويروي الأصفهاني في مقاتل الطالبين عن طريق مولى لأبي جعفر أنه قال: "أرسلني أبو جعفر فقال: اجلس عند المنبر فاسمع ما يقول محمد، فسمعتة يقول: إنكم لا تشكون أبي أنا المهدي، وأنا هو. فأخبرت بذلك أبا جعفر، فقال: كذب عدو الله بل هو أبي".¹⁹⁸

إن المنصور كان يستثمر كل الوسائل الممكنة لإقناع الناس بذلك وطلب من العلماء والخطباء والشعراء المساندين للسلطة أن يساعده في الأمر باستغلال نفوذهم في الدولة. وبالفعل نرى بعضهم يدعون الأدلة والأحاديث والأخبار الموضوعة على صحة تلقب المهدي بهذا اللقب. قال أبو الفرج الأصبهاني: "أخبرني الفضل بن إياس الهذلي الكوفي أن المنصور كان يريد البيعة للمهدي، وكان ابنه جعفر يعترض عليه في ذلك، فأمر بإحضار الناس، فحضرُوا، وقامت الخطباء فتكلموا، وقالت الشعراء فأكثروا في وصف المهدي وفضائله، وفيهم مطيع بن إياس، فلما فرغ من كلامه في الخطباء وإنشاده في الشعراء، قال للمنصور: يا أمير المؤمنين حدثنا فلان عن فلان: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المهدي منا محمد بن عبد الله، وأمه من غيرنا، يملؤها عدلا كما ملئت جورا"، وهذا العباس بن محمد أخوك يشهد على ذلك. ثم أقبل على العباس، فقال له: أنشدك الله هل سمعت هذا؟ فقال: نعم، مخافة من المنصور، فأمر المنصور الناس بالبيعة للمهدي".¹⁹⁹

قال البلاذري: "حدثت أنه لما بويع للمهدي بعث المنصور الأعلم الحمداني ببيعته إلى الحجاز فخطب بمكة على منبرها فقال في خطبته: وقد بايع أمير المؤمنين محمد ابن أمير

البايعين، دار ذات السلاسل، الطبعة الأولى، 1988م، عقد الدرر في أخبار المنتظر ص 113 وما بعدها، الرسائل العشر ص 213 وما

بعدها.

¹⁹⁷ المقدمة ص 320.

¹⁹⁸ مقاتل الطالبين ص 240.

¹⁹⁹ الأغاني ج 1 ص 287.

المؤمنين وهو عباسي النسبة، يثري التربة، حجازي الأسرة، شامي المولد، عراقي المنبت، خراساني الملك... جاءت به الروايات، وظهرت فيه العلامات، وأحكمتها الدراسات".²⁰⁰

وقال المؤمل بن أميل المحاربي أحد شعراء أهل الكوفة (ت190هـ/805م):

هو المهدي إلا أن فيه	مشابه صورة القمر المنير
تشابه ذا وذا فهما إذا ما	أنارا مشكلان على البصر
فهذا في الظلام سراج ليل	وهذا في النهار سراج نور ²⁰¹

وقال ابن كثير في ترجمة الخليفة المهدي: "إنه لقب بالمهدي رجاء أن يكون الموعود به في الأحاديث فلم يكن به، وإن اشتركا في الاسم فقد افترقا في الفعل، ذاك يأتي في آخر الزمان عند فساد الدنيا فيملاً الأرض عدلاً كما ملكت جوراً وظلماً. وقد قيل إن في أيامه يترل عيسى بن مريم بدمشق كما سيأتي ذلك في أحاديث الفتن و الملاحم. وقد جاء في حديث من طريق عثمان بن عفان أن المهدي من بني العباس، وجاء موقوفاً على ابن عباس وكعب الأخبار ولا يصح، وبتقدير صحة ذلك لا يلزم أن يكون على التعيين، وقد ورد في حديث آخر أن المهدي من ولد فاطمة فهو يعارض هذا والله أعلم".

وهكذا استغل العباسيون بعض النظريات الإسلامية المنحرفة لتوطيد سياستهم ولا سيما إبان التوترات والاضطرابات السياسية، وكأنهم كانوا مضطرين إلى ذلك تحت الضغط والانتقادات المستمرة من قبل الأطراف المناهضة لهم ولسياستهم. وقد تمثل هذا الضغط في الصراعات المسلحة في حين وفي الصراعات الجدلية والفكرية في حين آخر. وفي نهاية المطاف نقول أن العباسيين لم يكونوا أبرياء أمام هذه الحملات الشرسة ولذا استعصى عليهم تبرير تصرفاتهم غير المرغوب فيها، ومن ثم كان لا بد لهم من اللجوء إلى اتخاذ واستيعاب مواقف متباينة وفي بعض الأحيان غريبة، لأجل الدفاع عن أنفسهم وسلطانهم.

²⁰⁰ أنساب الأشراف ج3 ص256.

²⁰¹ تاريخ الرسل والملوك ج8 ص74.

٥) محاولة تقرب الحكام من العلماء

إن علاقة العباسيين مع العلماء كانت مستوحاة من سياستهم العامة حيث حاول العباسيون أن يجعلوهم أدوات لتطبيق سياستهم. ولقد أدركوا أهمية هؤلاء في الدولة الإسلامية إذ استطاعوا أثناء الدعوة تشويه جانب واسع من السمعة الأموية، فيجب أن يكونوا قادرين بالمقابل بناء جانب أوسع من سمعة الأسرة الحاكمة الجديدة. ولأجل ذلك تدبر العباسيون جيداً واقعهم ودرسوه من كل ناحية وتوصلوا إلى حل عملوا على تنفيذه، ألا وهو التحالف القوي مع العلماء والاستفادة من نفوذهم الديني والاجتماعي، لأن هذا الشكل من التعاون سيساعدهم في توطيد سياساتهم، وتنفيذ برامجهم السياسية، وفوق كل ذلك يمكنهم من احتذاب وتقريب العوام إليهم وتقربهم منهم.

يقول هاملتون جب أن الخلفاء العباسيين أدركوا بوضوح أهمية الدور الذي كان الفقهاء قد قاموا به في مصائر الدولة فجعلوا التعاون بين دولتهم الجديدة وبين الفقهاء ركناً من سياستهم. وأخذ العباسيون يرعون الفقهاء رعاية ويكفلون بها حماية رسمية لمذهب سني، ولم يقتصروا على ذلك كله فقط بل أخذوا يضعون المؤسسات الرسمية تحت إشراف الدولة...²⁰²

إن الحكام العباسيين في الواقع استغلوا صلتهم بالعلماء وجمعوا بعضهم حول عرش الدولة ليقوموا بعملية القضاء والإفتاء، ولم يندر أن يكون ذلك لصالح السلطة ومآربها، كما كانوا يروجون بعض برامجهم السياسية. وليس من المتعذر أن نلاحظ في سير خلفاء بني العباس كثرة اتصا لهم برجال العلم، كما أن ثمة كثافة في الأخبار التي تروي لنا حوارات متنوعة بين الخلفاء والعلماء، وما منح الأولون من الهدايا والأعطيات لمن تعامل معهم ووافقهم في مواقفهم السياسية والدينية، وما أنزلوه من المحن والاضطهادات على من

Hamilton A.R. Gibb: Studies on the Civilization if Islam: page 10-11, Edited by Stanford J. Shaw²⁰²
and William R. Polk, Beacon Press, Boston 1962.

دراً التحالف معهم ومساندتهم، وتذمر منهم، وما أطلق الآخرون من المواعظ والنصائح والانتقادات تجاه الحكام وممارساتهم السياسية والمقابل ما عانوا من العذاب والخن على يد هؤلاء الحكام.

كان العصر العباسي الأول من أكثر عصور الإسلام نشاطاً في مجال التشريع وعدد الفقهاء المجتهدين. وكان العلماء أحراراً في نزعاتهم واجتهاداتهم، لا تتدخل السلطة فيما بينهم من النزاع ولا تحجر على حريتهم في الفكر ما داموا بعيدين عن مسائل الحكم، وما شابه ذلك من المسائل التي تتضارب حلولها الإسلامية النقية مع الواقع السياسي، فلهم أن يجتهدوا ويتأملوا ويتناظروا في غير ذلك ما شاءوا وكيف شاءوا. ولم تعترض السلطة لمن وسع مثلاً في استعمال الرأي كما لم تعترض لمن ضيق دائرته وقيد استنباط الأحكام من القرآن والسنة وحدهما. ولقد اختارت الحكومة القضاة من مناح مختلفة في الاجتهاد وتركت لهم الحرية في الأحكام على حسب اجتهادهم، فرمما حدث أن يحكم في المسألة بحكمين متباينين في مصريين مختلفين، ورمما حدث أن يحكم بحكمين متباينين في مصر واحد إن كان فيه أكثر من قاض أو مفت واحد.²⁰³

وفي ضوء هذا المبدأ نقول أن الحكام العباسيين لم يسمحوا أي نشاط أو عمل، بغض النظر عن نوعيته أو مصدريته، إن كان من المحتمل أن يؤدي بطريق مباشر أو غير مباشر إلى ضعف شأن السلطان، وفي ذلك يقول المنصور بكل صراحة: "الملوك تحتل كل شيء من أصحابها إلا ثلاثاً: إفشاء السر، والتعرض للحرمة والقدح في الملك".²⁰⁴

ولعلنا نستطيع الآن أن نفقه بواعث عناية العباسيين بمنصب القضاة والقضاة.²⁰⁵ ومنصب قاضي القضاة الذي أحدث في عهد الخليفة الرشيد، وقد تمنوا به إحكام المركزية

²⁰³ أنظر ضحى الإسلام ج 2 ص 237.

²⁰⁴ قارن بين رواية الطبري ج 8 ص 88، ورواية التعالي في آداب الملوك ص 70.

قارن قول المنصور هذا مع قول معاوية بن أبي سفيان: "إني لا أحول بين الناس وألستهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا". الكامل في

التاريخ ج 4 ص 13.

²⁰⁵ يروي أن المنصور أول من ولي القضاة الأمصار من قبله، وكان يوليهم أصحاب المعاين. تاريخ العقري ج 2 ص 389.

وتوطيدها من جهة ومراقبة كفايات الولاة من جهة ثانية وتوحيد الأحكام بين القضاة من جهة ثالثة. وإذا كان الهدفان الأول والثاني لهما الطابع السياسي-الإداري فإن الهدف الثالث كان من مشاكل الدولة التي كانت تشغل بال الناس طويلا في تلك الفترة.²⁰⁶ لقد وعى الخلفاء العباسيون الأوائل أنهم لا يستطيعون أن يحملوا الناس في الفقه والتشريع على رأي واحد يأخذهم به، إذ كان الفقه في مطالع تكونه، كما كان الحديث النبوي في مرحلة التدوين والتثبيت. لذلك كان قصارى ما يستطيعون هو تعيين القضاة من عندهم ومراقبة أحكامهم لئلا يكون فيها ما يلمس شئون الدولة ويضادها من الناحية السياسية.²⁰⁷

ونستطيع أن نقسم العلماء في العهد العباسي الأول بناء على دورهم ومواقفهم السياسية تجاه الدولة إلى فئات آتية:

الفئة الأولى: فئة معارضة قد تذبذبت بين المعارضة العنيفة التي يمثلها العلماء العلويون الخارجون مع إبراهيم بن عبد الله بالبصرة سنة 145هـ/762م²⁰⁸ ومحمد ذي النفس الزكية بالمدينة سنة 145هـ/762م²⁰⁹ وبين المعارضة الخفيفة التي توصف أحيانا بالميل العلوية المعتدلة كأبي حنيفة²¹⁰، والشافعي²¹¹، وسفيان الثوري (ت 161هـ/777م)²¹²، ومالك بن

²⁰⁶ دولة بني العباس ج 1 ص 565.

²⁰⁷ نفس المرجع ج 1 ص 567.

²⁰⁸ قال صاحب شذرات الذهب: "وكان خرج مع إبراهيم كثير من القراء والعلماء منهم هشيم وأبو خالد الأحمر وعيسى بن يونس

وعبد بن العوام ويزيد بن هارون وغيرهم". (شذرات الذهب ج 1 ص 214)

²⁰⁹ قال السيوطي في تاريخ الخلفاء: "كان المنصور أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين، وكانوا قبل شيئا واحدا. وأذى المنصور خلقا من العلماء ممن خرج مع محمد وإبراهيم أو أمر بالخروج قلا وضربا وغير ذلك، منهم أبو حنيفة، وعبد الحميد بن جعفر، وابن عجلان، ومن أفتى بجواز الخروج مع محمد على المنصور مالك بن أنس..." (تاريخ الخلفاء ص 261)

²¹⁰ شذرات الذهب ج 1 ص 214، ومقاتل الطالبين ص 361-362.

²¹¹ فخر الدين الرازي: مناقب الإمام الشافعي ص 84، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م، وأبو عمر يوسف النعري القرطبي: الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ص 95-98، دار الكتب العلمية، بيروت، دون سنة الطبعة.

²¹² هو من أبرز المحدثين والفقهاء في زمانه، يقال عنه أنه أمير المؤمنين في الحديث. (مروج الذهب ج 3 ص 332، والمخالف شمس الدين الذهبي: مناقب الإمام سفيان الثوري ص 56-64، تحقيق ودراسة قسم التحقيق بالدار، دار الصحابة للتراث، طنطا، الطبعة الأولى، 1993م)

أنس²¹³، وأحمد بن حنبل²¹⁴ ومحمد بن عبد الرحمن ابن أبي ذؤيب²¹⁵ وغيرهم... ومن ضمن هذه المجموعة أيضا فقهاء ظلوا على الميول الأموية كالوليد بن مسلم الأموي (ت195هـ/810م)²¹⁶، وعوانة بن الحكم الكلبي (ت147هـ/764م)²¹⁷ وغيرهما.²¹⁸

الفئة الثانية: فئة محايدة لم يدخل أصحابها كثيرا في شؤون الدولة بل تفرغوا لشؤون العلم والدين المحضة، ومن أمثالهم: الليث بن سعد (ت175هـ/791م)²¹⁹، والأوزاعي (ت157هـ/773م)²²⁰، وعمر بن عبيد المعتزلي (ت144هـ/761م)²²¹، وإسماعيل بن علية (ت193هـ/808م)²²²، وعبد الملك عمرو بن حزم (ت176هـ/792م)²²³ وغيرهم.

الفئة الثالثة: فئة موالية ومتعاونة كان أصحابها يتولون مناصب الدولة العباسية المختلفة، ويأتي في رأس هذه المجموعة أبو يوسف قاضي القضاة²²⁴، ومحمد بن الحسن الشيباني (ت189هـ/804م)²²⁵، وأبو البختری (ت200هـ/815م)²²⁶، والزنجي بن خالد المكي

²¹³ تاريخ الرسل والملوك ج7 ص560، كتاب العبر ودبوان المبتدأ والخبر ج3 ص406، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ص43، وجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي: صفة الصفوة ج2 ص103، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الثانية، 1992م.

²¹⁴ تاريخ الرسل والملوك ج8 ص644، تاريخ العباسيين ص464، محمد جميل بن عمر البغدادي: مختصر طبقات الخبابة ص11-12، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 1986م)

²¹⁵ تاريخ بغداد ج2 ص298، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ج8 ص233.

²¹⁶ عالم الشام في عصره، من حفاظ الحديث. له 70 تصنيفا في الحديث والتاريخ منها "السنن" و"المغازي". (الأعلام ج8 ص122)

²¹⁷ مؤرخ من أهل الكوفة، ضريح، كان علما كبيرا بالأنساب والشعر. (الأعلام ج5 ص93)

²¹⁸ أنظر دولة بني العباس ج1 ص53-54.

²¹⁹ إمام أهل مصر في عصره. محدث، فقيه. (تاريخ الإسلام ج11 ص308-309، تاريخ بغداد ج13 ص5)

²²⁰ إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وأحد الكتاب المترسلين. (العقد الفريد ج3 ص96-97، والبداءة والنهاية ج10 ص120-122)

²²¹ شيخ المعتزلة في عصره ومفتيها، وأحد الزهاد المشهورين. (شذرات الذهب ج1 ص210، والبداءة والنهاية ج10 ص81-82،

والأخبار الطوال ص384)

²²² من أئمة العلماء والمحدثين الرفقاء، قد ولي المظالم ببغداد وكان ناظر الصدقات بالبصرة. رفض أن يتولى القضاء للحليفة الرشيد.

(البداءة والنهاية ج10 ص233)

²²³ من العلماء المشهورين في عصره، تولى شيئا من القضاء بالعراق وكان على بيت المال ببغداد في خلافة الرشيد. (البداءة والنهاية

ج10 ص176)

²²⁴ شذرات الذهب ج1 ص300.

²²⁵ إمام الفقه والأصول. وهو الذي نشر علم أبي حنيفة. كان قاضي القضاة في خلافة الرشيد. (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص247)

(ت179هـ/795م)²²⁷، ويحيى بن أكرم قاضي المأمون (ت242هـ/856م)²²⁸، ومحمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى (ت158هـ/774م)²²⁹ وغيرهم. ولم يندر أن يقدم أفراد هذه المجموعة الفتاوى والحلول التي كان الحكام يتمنونها في حالة المسائل والقضايا العويصة التي طرحتها الظروف السياسية أو الاجتماعية أو الدينية (مثل ما فعل أبو البخري القاضي في نقض أمان الرشيد ليحيى بن عبد الله العلوي (ت180هـ/796م)²³⁰ سنة 176هـ/792م)²³¹). وقد اتصل العباسيون وتعاملوا مع هذه الفئات على حسب طبيعة مواقف هؤلاء من الدولة وحكامها.

وهكذا ظل العلماء والحكام منفصلين في العهد العباسي الأول، غير أن الفراغ بينهم قد ضاق قليلا نظرا لمحاولات الآخرين لإخضاع الأولين لتطبيق وتنفيذ سياساتهم ولا سيما سياستهم الدينية. وقد نجحوا نسبيا بلا شك في تقريب بعض المجموعات من العلماء من الميادين العلمية المختلفة إليهم، وحضور كثير منهم يوميا في مجالس الخلفاء، وشخصهم معهم بالمثلات إلى الحج أو الجهاد وتوليهم لمناصب الدولة المختلفة في مختلف الأقاليم دلائل على ذلك. فقد أوجد العباسيون طبقة رسمية من العلماء تعمل تحت مظلة الدولة ورعايتها ولعل نجاح العباسيين في هذا الصدد يتصور أضخم مما هو في الواقع وخاصة عندما نضع في الاعتبار أنهم اغتصبوا السلطة من الأمويين معلنين بالدعوة للعمل بالكتاب والسنة، وذلك في عنفوان ظلم الحكام الأمويين تجاه الرعية، وكان طبيعيا أن تصير سياسية الآخرين بعد انقضاء سياسة الأولين بشرى سارة لكثير من الناس. وكان بلا ريب لهذا النوع من

²²⁶ من قرشي، فاض، من العلماء بالأخبار والأنساب، منهم بوضع الحديث. (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص247)

²²⁷ تايبي، من كبار الفقهاء، كان إمام أهل مكة. أصله من الشام. لقب بالزنجي لأجل حمرة أو على الضد لياضه. (معجم الأعلام ج837، تاريخ الرسل والملوك ج8 ص125)

²²⁸ قاضي المأمون رفيع القدر، عالم الشهرة، من نلاء الفقهاء. (تاريخ بغداد ج14 ص197)

²²⁹ قاضي الكوفة أيام خلافة المنصور. فقيه عظيم من أصحاب الرأي. (تاريخ الإسلام ج9 ص275-278، وعي الدين ابن العربي: معاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ج1 ص75، دار صادر، بيروت، دون سنة الطبعة.)

²³⁰ من كبار الطالبين في عصر المهدي والرشيد. (الأعلام ج8 ص154)

²³¹ تاريخ الرسل والملوك ج8 ص247.

التطورات الجديدة أثرا عظيما على طبيعة تشكل الأحداث السياسية والدينية والاجتماعية والعلمية اللاحقة.

(و) ولاية العهد

إن ولاية العهد عند العباسيين كانت من أبرز المميزات السياسية للعصر الأول. فمن خلال دراستنا إياها وما دارت حولها من الأحداث ندرک حقيقة وعمق الطموح العباسي في الحكم بحيث تسابق عليه عدد كبير من الشخصيات البارزة وقوية النفوذ في الدولة. وقد اتبعوا في ذلك، كما يعتقد الشيخ محمد الخضري بك، الأسلوب الذي سار عليه الأمويون وهو تجاهل الإرشادات الإسلامية في القضية وعقد الولاية لأكثر من واحد من الأبناء والاحوة، ولم يعتبروا بمن مضى قبلهم. فقد كان ذلك مبعث شرور وفتن شديدة، ولما سار هؤلاء سيرة أسلافهم جلبوا على أنفسهم تلك الشرور بعينها.²³² ونضيف هنا أن سياسة العباسيين العامة وأصولها الرئيسية قد انعكست على مؤسسة ولاية العهد، التي بطبيعة الحال تماشيت مع التطورات السياسية والاجتماعية والدينية. ولذلك نرى في ذلك العهد في مجال ولاية العهد أستغلت نظرية تقديس منصب الخلافة، ونسبت عملية اختيار صاحبه إلى إرادة الله تعالى، وأشيعت الأقوال عن ظهور المهدي المنتظر، كما نشاهد اعتمادا عظيما على العلماء ونفوذهم الديني والاجتماعي.

ودل كل ذلك على حقيقة ومقدار ابتعاد حكام العهد العباسي الأول عن الأصول التي تبني عليها عملية انتخاب الخليفة في الإسلام. إنه صحيح أن أساليب اختيار الخليفة في التاريخ الإسلامي قد تباينت حتى في عصر الخلفاء الراشدين، ولكن ما يجب أن يلزم به، بغض النظر عن نوعية أي أسلوب من الأساليب التي غالبا تفرضها الظروف والأحداث، هو رضا الأمة الإسلامية التي عليها المعاهدة والسمع والطاعة، وعلى الخليفة بالمقابل تطبيق الدين وتحقيق العدل الشامل والمساواة بين الناس. كما دل على عدم وجود رغبة جدية

²³² الشيخ محمد الخضري بك: تاريخ الأمم الإسلامية ص41، دار الفكر العربي، دون سنة الطبعة.

لدى حكام العصر العباسي الأول في التجاوز والتخلص من تلك العناصر الغربية والتقرب إلى العناصر ذات الصبغة الإسلامية الصافية.

فولى أبو العباس عهده رجلين يلي أحدهما الآخر، هما أخوه أبو جعفر المنصور وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي (ت 167هـ/783م)²³³، إلا أن رجلاً ثالثاً قد ظهر بعد وفاة أبي العباس وادعى الخلافة لنفسه وهو عبد الله بن علي، قد اعتقد أن الخليفة عهد إليه بالخلافة لما أرسله لقتل مروان بن محمد. وأرسل إليه المنصور جيشه وتخلص منه.²³⁴ لقد عاصر المنصور أبو مسلم الخراساني ذو النفوذ الكبير وخاصة في خراسان، فخاف المنصور منه على نفسه وعلى الدولة، فاستشار العلماء والقواد والولاة فيه²³⁵ فقرر أن يقتله وفعل.²³⁶

ولما شب ابن المنصور محمد المهدي دعا المنصور أن يعهد إليه ويعزل عيسى بن موسى²³⁷ واستخدم في ذلك وسائل شتى، ومنها أنه سقاه شراباً يتلفه فكاد يموت منه ولكنه أبل من علته فقال في ذلك شعراء الدولة:

أقلت من شربة الطبيب كما	أقلت ظي الصرم من فتره
من قانص ينفذ الفريص إذا	ركب سهم الختوف في وتره
دفع عنك المليك صولة ليث	يريد الأسد في ذرى حمرة
حتى أتاني وفيه داخله	تعرف في سمعه وفي بصره
أزعر قد طار عن مفارقة	وحف أثيب النبات من شعره ²³⁸

²³³ أمير من الولاة القادة. هو ابن أخي السفاح. كان يقال له شيخ الدولة. (أنظر معجم الأعلام ص 574، الكامل في التاريخ ج 5 ص 99-100، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج 3 ص 384، المختصر في أخبار البشر ج 1 ص 214، محاضرة الأبرار ومسامرة الأبرار ج 1 ص 75)

²³⁴ تاريخ البقوي ج 2 ص 365، وشذرات الذهب ج 1 ص 205، والمعارف ص 209.

²³⁵ مروج الذهب ج 3 ص 301.

²³⁶ تاريخ البقوي ج 2 ص 367.

²³⁷ أنظر الكامل في التاريخ ج 5 ص 180، وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج 3 ص 442.

²³⁸ تاريخ الأمم الإسلامية ص 42.

وكتب المنصور إلى عيسى بن موسى يسأله أن يتنازل عن ولاية عهده وأن يبايع بها لابنه محمد، وقرر في كتابه إليه أن ابنه هو المهدي المنتظر وأنه أحق منه بمنصب الخلافة، وقال له: "وهب الله لأمر المؤمنين ولياً ثم جعله تقياً مباركاً مهدياً، وللنبي صلى الله عليه وسلم سمياً، وسلب من انتحل هذا الاسم، ودعا إلى تلك الشبهة التي تحير فيها أهل تلك النية، وافتتن بها أهل تلك الشقوة، فانتزع ذلك منهم، وجعل دائرة السوء عليهم، وأقر الحق قراره، وأعلن للمهدي مناره وللدين أنصاره".²³⁹

وقال البلاذري: "حدثت أنه لما بويع للمهدي بعث المنصور الأعلم الحمداني بيعته إلى الحجاز، فخطب بمكة على منبرها فقال في خطبته: وقد بايع أمير المؤمنين محمد ابن أمير المؤمنين، وهو عباسي النسبة، يثري التربة، حجازي الأسرة، شامي المولد، عراقي المنبت، خرساني الملك... جاءت به الروايات، وظهرت فيه العلامات وأحكمت الدراسات".²⁴⁰

ولما ولي المهدي وشب ابنه موسى وهارون أعاد ذات السيرة مع عيسى بن موسى وطلب منه أن يخلع نفسه من الخلافة ليولي ابنه. وليقنع المهدي عيسى بن موسى وليروج فكرة ولاية عهده إلى الهادي ثم بعده إلى الهارون الرشيد أحضر بعض الفقهاء والقضاة ليسرروا له الأمر، ففعلوا، ومنهم محمد بن عبد الله بن علالة والزنجي بن خالد المكي وغيرهما.²⁴¹

فلما جاء الهادي إلى الحكم سنة 169هـ/785م حاول أن يخلع أخاه هارون الرشيد ويعهد إلى ابنه جعفر بن موسى الهادي²⁴² مع أنه لم يبلغ الحلم. يقول الطبري في ذلك: "وكان السبب في إرادة موسى الهادي خلع أخيه هارون حتى اشتد عليه في ذلك وجد -

²³⁹ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 16.

²⁴⁰ أنساب الأشراف ج 3 ص 256.

²⁴¹ للمنظم في تاريخ الأمم والملوك ج 8 ص 235، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج 3 ص 443، وتاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 125.

²⁴² الكامل في التاريخ ج 5 ص 270، وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج 3 ص 458.

فيما ذكر صالح بن سليمان- أن الهادي لما أفضت إليه الخلافة أقر يحيى بن خالد على ما كان يلي هارون من عمل المغرب، فأراد الهادي خلع هارون الرشيد والبيعة لابنه جعفر بن موسى الهادي، وتابعه على ذلك القواد، منهم يزيد بن مزيد وعبد الله بن مالك وعلي بن عيسى ومن أشبههم، فخلعوا هارون، وبايعوا لجعفر بن موسى، ودسوا إلى الشيعة فتكلموا في أمره، وتنقصوه في مجلس الجماعة، وقالوا: لا نرضى به، وصعب أمرهم حتى ظهر، وأمر الهادي ألا يسار قدام الرشيد بحرية، فاجتنبه الناس وتركوه، فلم يكن أحد يجترئ أن يسلم عليه ولا يقربه".²⁴³

ولكن الهادي لم يستطع أن يحقق خطته فولى الرشيد وكان أكبر ولده محمد المأمون ولكنه عهد إلى ابنه محمد الأمين لأنه ابن زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، والمأمون أمه أمة حلية من بلاد فارس، وكان ذلك العقد سنة 173هـ/789م وسن الأمين لا تتجاوز ثلاث سنوات، وبعد عشر سنين رأى أن يضم المأمون ليكون ولي العهد بعد الأمين، وذلك برأي جعفر بن يحيى البرمكي وسعيه فعقد له سنة 183هـ/799م. ثم طلب عبد الملك بن صالح بن علي من الرشيد أن يبايع لثالث أولاده القاسم بن الرشيد (ت208هـ/823م) ففعل وسماه الموثمن، وقسم البلاد بين أولاده الثلاثة فجعل الشرق للمأمون وهو خراسان والري إلى همدان، وجعل الغرب للأمين وهو المغرب ومصر والشام، وجعل للموثمن الجزيرة والثغور والعواصم.²⁴⁴ واستعمل الرشيد في تلك الممارسة نفوذ الفقهاء والقضاة استعمالاً واسعاً²⁴⁵ كما لجأ إلى استغلال "تقديس عزيمته" وأعزاها إلى إرادة الله تعالى المطلقة.²⁴⁶

لقد وضع الخليفة الرشيد بذلك التصرف بلا شك جذور الفتنة التي ستشتعل بين ابنيه الأمين والمأمون. وقد أدرك بعض الناس ذلك وكتبوا إلى الرشيد:

²⁴³ تاريخ الرسل والملوك ج8 ص207.

²⁴⁴ تاريخ الأمم الإسلامية ص42-44، والبداءة والنهاية ج10 ص194، وشذرات الذهب ج1 ص309، وأبو الفرج جمال الدين ابن العري: تاريخ الزمان ص17، نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت، 1991م.

²⁴⁵ أنظر تاريخ الرسل والملوك ج8 ص278.

²⁴⁶ نفس المرجع ج8 ص275-287، وتاريخ يعقوبي ج2 ص416-421، والبداءة والنهاية ج10 ص194.

يا أيها الملك الذي	لو كان نجما كان سعدا
أعقد لقاسم بيعة	وأقدح له في الملك زندا
فأله فرد واحد	فاجعل ولاة العهد فردا ²⁴⁷

ولما قضى الرشيد حجه في سنة 186هـ/802م أحضر من معه من الأمراء والوزراء، وأحضر ولي العهد محمدا الأمين وعبد الله المأمون. وكتب بمضمون ذلك صحيفة، وكتب فيها الأمراء والوزراء خطوطهم بالشهادة على ذلك، وأراد الرشيد أن يعلقها في الكعبة فسقطت فليل: هذا أمر سريع انتقاضه. وقال إبراهيم الموصللي في عقد هذه البيعة في الكعبة:

خير الأمور مغبة	وأحق أمر بالتمام
أمر قضى أحكامه	الرحمن في البلد الحرام ²⁴⁸

وبالفعل شهد العالم الإسلامي في إثر وفاة الخليفة الرشيد حربا أهلية واسعة المدى بين الأمين والمأمون وانتهت بقتل الأمين واستقرار الحكم مع المأمون.²⁴⁹

²⁴⁷ البداية والنهاية ج 10 ص 194.

²⁴⁸ نفس المرجع ج 10 ص 194.

²⁴⁹ وكان باعنا رئيسا لهذه الحرب الأهلية أن الفضل بن الربيع، وزير الأمين، حسن له خلع المأمون والبيعة لابنه موسى. واتفق مع الفضل جماعة على ذلك. وذلك أن الفضل بن الربيع خاف من المأمون ومن مطامحه السياسية إن أفضت الخلافة إليه. فمال الأمين إلى قوله وقول من كان معه. ثم إنه استشار عقلاء أصحابه فبهوه عن خلع المأمون وحذروه عاقبة البغي ونكت العهود والمواثيق. وقالوا له: لا تجرئ القواد على الكبت للأمين وعلى الخلع فيخلعوك. لكن الأمين لم يلفت إليهم ولم ينتبه إلى عواقب ذلك العمل ومال إلى رأي وزيره الفضل، ثم شرع في حذر المأمون باستدعائه إلى بغداد. لكن المأمون لم يتخدد وكب يعتذر. وترددت المراسلات والمكاتبات بينهما حتى رقى المأمون وعزم على الإحابة إلى خلع نفسه ومبايعة موسى بن الأمين، فحلا به وزيره الفضل بن سهل وشجعه على الامتناع وضمن له الخلافة، وقال: هي في عهدين. وفي النهاية امتنع المأمون. ونحس الفضل بن سهل بأمر المأمون، واستمال له النسي وضبط له الثغور والأمور. واشتدت العداوة بين الأخوين حتى قطع الأمين خطبة المأمون في بغداد وقبض على وكلائه. وكذلك فعل المأمون بخرسان. ونما الشر بينهما حتى اندلعت ونشبت الحروب والفن التي استغرقت أربع سنوات، من سنة 194هـ/809م إلى سنة 198هـ/813م. وانتهت الحروب سنة 198هـ/813م بقتل الخليفة الأمين واستقرار الحكم في يد المأمون. ومن الشخصيات البارزة في الجانب المأموني طاهر بن الحسين (ت 207هـ/822م)، من كبار الوزراء والقواد أديبا وحكما وشجاعا. وهو الذي حارب الأمين

إن استقرار الحكم مع المأمون مثل تغيراً جذرياً مؤقتاً في ميدان ولاية العهد إذ عهد إلى علي بن موسى العلوي²⁵⁰ وسماه الرضى من آل محمد وأمر جنده بطرح السواد ولبس ثياب الخضرة، وكتب بذلك إلى الأمصار يأمر الجند والولاة والوعاظ²⁵¹ في جميع بني هاشم بالبيعة له، وكان يغري بعضهم في ذلك بالمال. وفي هذا الصدد روى الطبري أن العباس بن موسى بن جعفر العلوي (ت199هـ/814م) عين والياً على الكوفة وأمر بلباس الخضرة وأن يدعو للمأمون ومن بعده لأخيه علي بن موسى، وحصل على مائة ألف درهم معونة له ولمشروعه الذي كلف به، وقيل له: قاتل عن أخيك فإن أهل الكوفة يجيبونك إلى ذلك.²⁵²

ولكن العباسيين ببغداد قد رفضوا ولاية العهد هذه وخلعوا المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدي (ت224هـ/838م)²⁵³ بالخلافة ومن بعده ابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي (ت حول 230هـ/844م)، وأنهم يعطون عشرة دنائير كل إنسان أول يوم من المحرم أول يوم من السنة المستقبلية. فقبل بعض ولم يقبل بعض حتى يعطى.²⁵⁴

وحاصر في النهاية بغداد. وحرت بين الطرفين وقائع كثيرة كان في آخرها الغلبة لعسكر المأمون. وقتل الأمين وحمل رأسه إلى المأمون بخراسان.

لمزيد من التفاصيل عن هذه الحرب وما ترتب عليها من التدمير والفسوى العامة في الدولة الإسلامية أنظر الفحري في الآداب السلطانية ص213، تاريخ الرسل والملوك ج8 ص374 وما بعدها، وتاريخ يعقوبي ج2 ص446 وما بعدها، وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخير ج3 ص493 وما بعدها، ومعلم بطرس البستاني: دائرة المعارف ج5 ص510، دار المعرفة، بيروت، دون سنة الطبعة، وتاريخ الزمان ص19-20.

²⁵⁰ المعارف ص218، والتنبيه والإشراف ص318، والكامل في التاريخ ج5 ص431، وتاريخ يعقوبي ج2 ص448، وتاريخ الرسل والملوك ج8 ص554.

²⁵¹ العقد الفريد ج5 ص326.

²⁵² تاريخ الرسل والملوك ج8 ص559.

²⁵³ هو أخو هارون الرشيد، من العباسيين البارزين. (شذرات الذهب ج2 ص53)

²⁵⁴ أنظر تاريخ الرسل والملوك ج8 ص555، وشذرات الذهب ج2 ص3، والبداءة والنهاية ج10 ص258-259، وتقي الدين محمد بن محمد الحسيني الفاسي: المقنع ص15، تحقيق الدكتور محمد التويني، دار الملاح، الطبعة الأولى، 1986م.

إن تسليم المأمون لولاية العهد إلى العلويين أنتج جانبا جديدا من القضية وهو إثارة الجدل القدام بين الفتتين عن الأحقية في الخلافة. وتورط في ذلك كثير من العلماء والقضاة العلويين والعباسيين على حد سواء.²⁵⁵ ولكن بعد موت علي بن موسى المفاجئ²⁵⁶ عادت الأمور مرة ثانية إلى مجاريها المعتادة إلا أنه كان يجب على المأمون أن يقتنع أهل بغداد لخلع إبراهيم بن المهدي، فجدد كل ما استطاع أن يجنده من العلماء والخطباء والولاة ليحقق ذلك فنجح في سنة 203هـ/818م وهي نفس السنة التي توفي فيها علي بن موسى.²⁵⁷

كان هذا عرضا مختصرا عن مؤسسة ولاية العهد عند خلفاء العهد العباسي الأول. لم تكن ولاية العهد بالذات محور اهتماماتي فحسب بل تمكنت أن أقدم مدى عناية الحكام بها. فرأينا كيف كانوا يدرجون وينسقون وأخيرا يخضعون كثيرا من المفاهيم والمبادئ الدينية والاجتماعية لهذه المؤسسة التي لم تتخذ حتى في مستهلها اتجاهها إسلاميا سديدا، ومن ثم صارت من الأمور السياسية العباسية الخالصة وتلونت بلونها ولم تكن قضية الأمة الإسلامية كما رسمها الإسلام وكما مارسها النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون. وذلك بكل وضوح يضاد وعود العباسيين بعد سقوط الأمويين.

وهذه نهاية حديثنا عن المميزات السياسية والدينية حيث حاولت تقديم أهم تلك المميزات من منظور موضوعي إبتغاء في هبة المجال لما يلي من الفصول، وأولها "تطور الحياة السياسية المنفصل عن تطور الحياة العلمية".

²⁵⁵ أنظر العقد الفرید ج 5 ص 317-327.

²⁵⁶ للمعارف ص 219، والكامل في التاريخ ج 5 ص 448.

²⁵⁷ تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 570.